رواية

خاص جدا

نشأت المصري

جراحنا طبقات

إهداء

إلىٰ الرائعات

رواء – نهىٰ – مروة

نشـأت

١

أول حلم تحقق

انطلقت زغرودة الأم ترصع الفضاء بالفرح، لقد قُبل "حامد" بكلية الهندسة بجامعة القاهرة، وما أقرب القاهرة من قرية بسيون مسقط رأس أسرة حامد.

بيدٍ ترتجف زهوًا، رفع حامد سماعة الهاتف المنزلي، وأخبر أخته نهلة بالمفاجأة السارة، وخلال أقل من ساعة انتشر الخبر، ومن القاهرة أيضًا هنَّأ سمير أخاه حامدًا والأسرة السعيدة.

وما كادت الزغرودة الثانية تتفتق حتىٰ تجمدت وابتلعتها الأم، حيث خطر ببالها حسد الجيران المتوقع، وأشهرت أصابع يدها الخمسة في الفضاء كأن كل العيون تجمهرت في سقف الحجرة، وتوالت إشارات وزيارات ومكالمات التهاني، وبعد أن لملم الليلُ ثيابه استلقىٰ حامد علىٰ سريره مزدحمًا بالآمال، وحدَّث أمَّه بصوتٍ خاضع:

- من حقك أن أشكرك كثيرًا يا أجمل صباح؛ يا أعظم أم.
- القادم هو الأهمُّ يا ولدي الغالي.

- اطمئني، سأكون غنيًا جدًا، وستفاخرين بي.

عبثت بشعره، وافترشت البسمة وجهها، جذب يدها وقبَّلها كعادته.

هي ليلةٌ استثنائيةٌ جميلة، تشيع فيها ألحان مسرة، والأحلام تمشي علىٰ قدمين في أنحاء البيت.

- تأخرت يا حاج!

ردَّ وهو يخلع جلبابه الرماديِّ، وقد برزت استدارة كرشه:

- كأن الزبائن علىٰ موعدٍ هذه الليلة، لقد بعنا الكثير من الملابس.

قالت الحاجَّة صباح ضاحكةً بأسنانها البيضاء:

- هل فقدوا ملابسهم، وصاروا عرايا!

علىٰ سرير الحكايات طرحا جسميهما، وعيناهما تتجولان في زوايا السقف بلا قصد.

- عندي لك خبر غريب يا صبوحة، ويهمني رأيك.

- خير يا عزمي، وإن شاء الله رأينا واحد.

- طول عمري ومنذ كنت طفلًا، وأنا أعمل وأكسب وأنفق علىٰ نفسي بعرق جبيني كما تعرفين، وكأنَّ الأيام كانت بالمرصاد، فذقت مرارة اليُتم من الشهور الأولىٰ، حتىٰ أمي رحمها الله بادرت بالزواج مبكرًا.

- ليتك تنسىٰ هذه القصة حتىٰ لا تُجدد الألم، وسأردُّ عليك نفس الرد: إنك الآن من أفضل أهلك مالًا واحترامًا، وبيتنا لا يخلو من زيارة أكابر البلد، ولك زوجة جميلة اسمها صباح (ضحكت في دلال) وأصبحنا جدًا وجدة.

- كانت وستظل جميلة، إنني أحبُّ الجمال.

- ابنك حامد يقول ذلك أيضًا.

- لا.. لا.. إنه يفهم في صرف "الفلوس" أكثر.

- كنت تُريد أن تقول شيئًا!

قال وكأنَّه يذيع بيانًا عسكريًا:

- قررت أن أترك التجارة، وأُحيل نفسي إلىٰ المعاش، أُسوةً بزملائي من الموظَّفين.

ضربت صباح بيدها علىٰ صدرها:

- وكيف نعيش يا عزمي! إنَّ حامدًا يحتاج إلىٰ مالٍ كثيرٍ للدراسة والزواج.

- سأضع كل ثروتي في البنك، وشركات توظيف الأموال، وننفق من الفائدة، وستكفينا وتفيض، لقد تعبت يا صباح.. تعبت، وحان أن أفلت من ساقية العمل اليومي.

- فهمتك يا عزمي؛ ارتفاع سعر الفائدة أغراك.

- نعم، وسأوزِّع أموالي علىٰ شركاتٍ عديدة، حتىٰ إذا أفلست إحداها نجونا بالباقي، وسأبدأ بالريَّان، والهدىٰ مصر.

- هل سألت أحدًا؟

- علمتني الحياة أن أحيا وحدي، وأتخذ قراري وحدي.

- هو قرارٌ خطير، وأنا لا أريد لك التعب، عليك أن تُصلِّي صلاة الاستخارة مرتين، ويفعل الله ما يشاء.

ولم يستطع الحاج عزمي أن يغالب انغلاق عينيه وقد احتضنتا صباح بحنان.

سـهَّمت صـباح، وومضـت في ذاكرتهـا صـورتها، وهـي تُصلي في المسجد حين كان حامد طفلًا صغيرًا، وكان برفقتها، ولـم يفهـم سـرَّ دموعهـا المتدفقـة، واكتفـىٰ بمـا يقـدر عليـه، إذ امتدت يده الغضَّة، ومسحت علىٰ ظهرها، لـم يكـن حامـد يعلم أو يتخيل أنَّ أمه تبكي من أجله، وتدعو لشفائه من مرضه الذي أعيا الأسرة وخطف أمانها، كم عـانىٰ حامـد بـدون سببٍ معلوم، إذ تخترق نومه نوبةٌ شبه يوميَّة مـن الارتجـاف والبكـاء والهلع الذي يهزُّه هزًا، طفل في الخامسة يفزعه رعبٌ مجهول، عجز الأطباء والشيوخ عن تفسيره، وحين تنتهي النوبة يسألون حامًدا:

"هل تذكر شيئًا؟ وما الذي أيقظك؟ ومـاذا رأيـت؟ وأيـن مواطن الألم؟"

فتكون الإجابة: "لا أذكـر شـيئًا، لـم أشـعر بشـيءٍ" وكأنَّـه كان شخصًا آخر.

وكمـا دهمهـم طوفـان الأسـىٰ أيامًـا وشـهورًا طويلـة، انحسرت الحالة بعد عامٍ بلا سبب، لكن غمر قلب الأم إشفاقٌ مهزومٌ جعلها تلبي كل ما يطلبه حامد، وتمتنع عن نهره وتأنيبه

مهما فعل، فعاش ملكًا علىٰ عرش حنانها التلقائي.

صارت الحاجَّة صباح امرأةً متميزةً حقًا، لا تسرف في إقامة صداقاتٍ مع الجيران، في عينيها الواسعتين سحر الأمر القاطع، والرجاء الخاشع فيما لا تملك، قصر قامتها يظلمها، ويكشف عن حذرٍ ليس فيها، ومكرٍ لا وجود له، وشعرها المجعد الأسود تطلقه في ضفيرةٍ طويلةٍ يحبُّ عزمي مشهدها، وهي كأخواتها ممتلئة خمرية، وعلىٰ فكها السفليِّ شامة ظاهرة. طرق النومُ جفونها، فسكن كلُّ شيء.

٢

صحا الصباح وما أكثر ما يخدعنا الصباح، وبالعدل وزعت الشمس رسائلها علىٰ بيت الحاج عزمي ذي الطابقين، وبيت الست "..." الملاصق له، المبنىٰ بالطوب اللبن منذ سنين بعيدة، وبابه يصر صريرًا حزينًا كأنه مواء قطٍ بائسٍ عند فتحه وغلقه، وفي الأيام الأخيرة، قلَّت مرات حركة الباب، مما يعني خفوت الحياة خلفه.

شيء واحد كان يُذكِّر أسرة الحاج عزمي بوجود الست "..." وهو السعال الشديد، حيثُ تفترسها نوبات الربو من حينٍ لآخر، فتزلزل جسدها النحيل، وكان "سمير" هو همزة الوصل الجميلة بين الأسرتين أو بين المسكنين، ففي كل عيدٍ يطرق بابها ويُهديها كلماتٍ خضراء وابتسامةً نديَّة، ويسألها سؤالًا لا يتبدل عن أحوالها وما تحتاج إليه في وحدتها، فيسمع منها نفس الإجابة الشاكرة الحامدة المرطبة ببقايا البهجة الغاربة -خاصةً بعد زواج ابنتها في الصعيد- تقول:

- ربنا يخليك، لا أستغنىٰ عن كرمك، أنتم أهلي وجيراني.

و"سمير" يتعمد إبداء الاهتمام بكل ما تقوله عن نفسها وعن ابنتها، وينصت إليها بأذنيه الكبيرتين، وتنطبع معاني الكلمات علىٰ وجهه المستدير بين الرضا والحزن.

وكثيرًا ما تساءلت أسرة الحاج فهمي في اجتماعاتها العشوائية:

كيف نساعد هذه المرأة الطيبة، وهي ترفض دائمًا أية مساعداتٍ ماديةٍ أو ماليةٍ رغم احتياجها الشديد، لكنه التعفف الذي يرفع صاحبه، ويتعبه أحيانًا!

إلا أنها كسرت المألوف ذات مرةٍ وهي تقول:

- لي طلبٌ واحد، وهو أن أتخلص من الربو الذي يخنقني، لكنني أعلم أنه لا علاج له، وليس بيد أحدٍ إلا الله.

يتذكرون تلك الآهة اليائسة، فتطبق غيوم الصمت عليهم.

قال سمير وهو يكزُّ علىٰ شفته السفلىٰ:

- الست جارتنا العزيزة حاضرة غائبة عنا، حين نذكرها نجدها ونراها، وعندما ننساها تتلاشىٰ من وعينا.

أما حامد فيذكر لهذه الجارة الوديعة ترحابها المفرط إذا التقته صدفةً في طريقها، وقد غلب حنانها الريَّان تخوفه منها، وقد قرأ في وجهها سطورًا من وجه أمه، فاستسلم لطيبتها كسيدةٍ في منزلة أمه مع قليلٍ من التردد.

قد نلتقي بألف شخصٍ لفترات طويلة، ويبقىٰ أحدهم مجسدًا محفورًا في ذاكرتنا مثل الست "..."

قالت الحاجة صباح:

- كم دعونا لها بالشفاء في غيابها، وفي كل مرةٍ نتصور أن الدعاء في طريقه إلىٰ الإجابة، ونستريح قليلًا كأننا اكتشفنا الدواء الملائم، وكأنها أدركت ذلك بسباحات روحها، فتقول وهي تتوهم صدق مقولتها:

"دعاؤكم يشفيني".

كانت طفولة حامد تمد يدها الرقيقة إلىٰ يد الست "..." البيضاء الطيبة، وهي التي تمنت أن تنجب ولدًا يشبه حامدًا، وهي في حضور حامد النادر تعلم أن للحياة معنًىٰ ومبررًا للاستمرار، فتمد جسور ابتسامتها إلىٰ قلبه الجديد، وبه تزرع لحظات متفائلة في حقول الحياة.

وشيئًا فشيئًا كبر حامد، واستقرت ملامحه، جبهته العريضة التي تفسرها أمُّه بالذكاء، وذقنه المدورة تصفها خالته بأنها إشارة إلىٰ الطيبة والوفاء، وشعره مجعدٌ أسود كأمِّه، وشفتاه سميكتان كالحاج عزمي، وطوله المتوسط يقارب أيضا طول أبيه.

لكن حامدًا كلما كبر تبخر ندىٰ المحبة من قلبه، وأصبح لا يرىٰ في المرآة إلا حامدًا فقط، والتوىٰ عنقه الطويل من الاستعلاء، والأم صباح لا تني تدفع تعويضًا نفسيًا وماديًّا للعام القاسي الذي عاشه حامد في سن الخامسة، وحامد يترجم ذلك إلىٰ حقوقٍ لا جدالٍ فيها يحصل عليها من أمه ومن الآخرين.

كانت المرة الأخيرة التي شاهد فيها حامد الست "..." قبل نجاحه، ابتسمت له لكنها لم تربح إيماءة رأسه لها بالتحية، كان متعجلًا وغير مبالٍ وربما لم يرها لأنه لا يريد أن يراها، أو لا يهمه ذلك، فهي سيدة مسكينة بكل المقاييس، وهو لا يكترث بالمساكين، فلا وقت لهم في حياته، ولا مكان لهم في قلبه.

ها هو يراها هذا الصباح في مشهدٍ مروع، حدَّق فيها ذاهلًا، إنها لا تنظر إليه لأنها مشغولة بنفسها انشغالًا مأساويًّا غير مسبوق، فاللحظة تساوي دهرًا، والألم بعمق الوجود، والأمل أكذوبة، لكنها الآن تفرض رأيها علىٰ الحياة، تتحدىٰ البقاء والرغبة فيه، صرخت في البداية من أعلىٰ منصة الألم عسىٰ أن تسمعها الدنيا، سمع حامد حروفها الختامية بأذنين تسمعان حسب الطلب والفائدة، فتبدد ما سمع في حينه، لقد أحاطت بجسدها النحيل نافورةٌ من اللهب، وهي تجوب الحارة ذهابًا وإيابًا عرضًا وطولًا، وبعض الأطفال يصرخون، يبعدهم الكبار عن جسد الست "..." المحترق الذي يلعن كلَّ لهبٍ يدفئُ قلبًا حجريًا، تملكت حامدًا بلاهة الدهشة ثابتًا كحجر، بعدما اقتطفت النار بوحشية زهرة روحها وعاقبت خلايا الطيبة لأنها تمردت علىٰ الحياة.

رجل واحد من بسطاء الحارة اشتعلت فيه النخوة، وتعلق بأهداب الشجاعة أمام الخطر، فأحضر لحافًا -ربما هو لحافه الوحيد ضد غائلة الشتاء- واندفع به تجاه الجسد المُؤجَّج بألسنة النار، وفي اللحظة التي غطَّىٰ به السيدة "..." باللحاف، قبضت عليه بذراعيها الناريتين تستنجد به، وفي الوقت ذاته

سقط اللحاف علىٰ الأرض، وصار الرجل بين فكَّي الحياة والموت، تخلص الرجل من يديها، وبكل ما هو كامن فيه من قدرةٍ علىٰ العدو فر من الموت، فقلبه كاد أن يتوقف، وهو يشاهد النار تكمل وليمتها المُرَّة.

قال الجار لزوجته:

- لم أكن أتصور أن تنتحر، كانت امرأةً ممتازة.

- كنا نستمد منها الأمل رغم بؤسها؛ رحمها الله.

أما حامد فلم ينطق حرفًا.

وحين جاء سمير من القاهرة في زيارته المعتادة، حكىٰ له حامد ما حدث في كلماتٍ قليلة متآكلة، فقال سمير وقد دوَّت بصمةٌ حارقةٌ في قلبه:

- هي كأُمِّي

وطفرت من عينه دمعة لم يعلق عليها حامد.

٣

تزامنت رحلة الدراسة مع شعورين استبدا بعقل حامد وقلبه، أولهما ارتفاع منسوب الانجذاب إلىٰ النصف الحلو، والثاني رغبته في الثراء السريع ليحقق أمنية أُمِّه صباح، ويكون أغنىٰ أبناء أسرة الحاج عزمي، وهو يتلمَّسُ في نفسه كل مؤهلات التميز، وتخطِّي الآخرين في صمت، وحين يصبحُ ثريًا مرموقا سيشتري كل شيء، بما في ذلك مشاعر الناس وهذا يتطلب حدًا أدنىٰ من الأناقة المفرطة، والتظاهر أنه من أسرةٍ بالغة الثراء، وأن الفرص تسعىٰ إليه أو تنتظره، وأدرك مبكرًا أهمية الحكمة الصينية أنَّ "الابتسامة هي أفضل طريق لقلوب الآخرين"، فأفرط حامد في ممارستها خاصةً أنها لا تكلف أيَّ مقابلٍ مادي، ولم يشغله معنىٰ الحديث النبوي الشريف الذي يرفعُ الابتسامة إلىٰ مستوىٰ الصدقة، كما أنه انتظم في أداء الصلاة علىٰ سبيل الاعتياد، وأصبحت ابتسامة حامد بديلًا جاهزًا عن الكلام في مناسباتٍ شتَّىٰ، وقد أرضاه لقب الضاحك الذي أطلقه عليه أقرانه في الكلية.

بابتساماته الملونة فتح أبوابًا ونوافذ لدىٰ أخيه سمير وأخته نهلة، فقضىٰ شهورًا طويلة معهما علىٰ بساطٍ من

الترحيب والود، حتىٰ حسده بعض المحيطين به علىٰ هذا التناغم العائلي، فيقول لبعضهم:

"في الغد القريب أكون قيمةً كبرىٰ في المجتمع، وأكون فخرًا لأسرتي، أما رعايتهم لي فهي واجبهم لأنني الأصغر سنا".

أمسك حامد بالقلم في عصبيةٍ غريبةٍ عنه، وكتب لأبيه رسالةً أنهاها بهذه الكلمات:

"أبي الحبيب: أحتاج إلىٰ ضعف ما تُرسله لي حتىٰ لا أتعرض للحرج أمام أخي وأختي وزملائي، لك كل الحب والتقدير، ودمت لنا عزًّا وكرامة، ولن أنسىٰ أبدًا ما حييتُ ما ضحيتَ به من أجلنا جميعًا، فأنت أبٌ عظيمٌ بحق".

قذف الحاج عزمي رسالة حامد إلىٰ أمِّه التي طالما اتهمها بتدليله الزائد عن الحد قائلًا:

- تفضلي؛ الباشمهندس لا يقدِّر ظروفنا، ألا يفهم معنىٰ أنني صفيت تجارتي!

- صبرًا يا حاج، إن حامدًا يستحق أن نضحي من أجله، وقريبًا يصبح مهندسًا مشهورًا، وهو كريمٌ بطبعه، لا عليك،

سنختصر نفقات البيت، وأرجوك لا تُشعره أبدًا بأنه حِملٌ علينا.

- قارنيه بسمير الذي لم يكلفنا، ولم يرهقنا بمطالبه المنفلتة.

قالت متباهية:

- لكن حامد مهندس يا حاج!

- لا نريد منه شيئا، ليته يكفي نفسه بنفسه بعيدًا عنا، إنه يبالغ في ثيابه، وفي نفقاتٍ كثيرةٍ لا مبرر لها.

- إنه مهندسٌ يا حاج، وهو كريم، سيكون ماله لغيره، وكم عانىٰ وهو طفل، لقد تعذب طويلًا.

- لا تكرري هذا الشريط الممل، سأرسل له ما طلب وأشتري دماغي.

***

اعتاد سمير أن يدس أنفه في أحوال غيره وأن يثرثر مع الآخرين أينما كانوا، ويظن سمير أن الناس يحبون الثرثرة، وعزا ازدهار وازدحام المقاهي في المدن والقرىٰ إلىٰ ذلك، إنه

سعيد بقدرته علىٰ تفجير حوارٍ حتىٰ مع الحجر، ويفلسف ذلك بأن ثرثرته عربون ودٍ يقدمه للناس، وربما خدمته مهنته كمحامي في تنمية قدرته تلك، وهو يتيه بذلك، ويدرك نجاحه في اختراق صمت الصامتين، ولا يعجبه اعتراض زوجته باعتبار أن هذا يكون علىٰ حساب كرامته أحيانًا، وكالعادة تُحمِّله مسئولية كل الأخطاء، وتختلق من رحم الصواب أخطاءً مضحكة، ولو أنهما عاصرا الحرب العالمية الثانية لاعتبرته سبب هذه الحرب، وعلقت في رقبته ذنب عشرات الملايين من الضحايا.

لكن الأمر يختلف تمامًا بين حامدٍ وسمير، حيث ينعدم الحوار أو يتحول إلىٰ حوارٍ من طرفٍ واحدٍ مزركشٍ بباقات من ابتسامات حامد بغض النظر عن طبيعة الموضوع.

فسمير -في نظر حامد- مسئول عن إشباع رغباته بشكل ما، ومن واجبه أن ينفق عليه بسخاءٍ أكثر، فالمحاماة مهنةٌ مربحة، ولهذا لم يكن يصدق حكايات سمير عن تراجع أرباحه، ويكتفي بأن يقرص ذقنه عدة مرات.

أما سمير فقد ألف أخبار حامد المحيرة، طمعًا في تأييده

ومساعدته -دون وجه حق- وتبين سمير بسهولة التباس كلامه بالخداع والكذب، ولم يواجهه بالحقيقة حتىٰ لا يمنح الشيطانَ مكانًا بينهما، لكنه لم يكتم دهشته واستياءه عندما فاجأه حامد بتفكيره في خطبة فتاةٍ توهَّمَ أنه يحبها وأنها تحبه.

قال سمير وقد ازداد وجهه استدارةً ويقظة:

- كم مرةٍ التقيتها؟

- مرتان، لأنها اسكندرانية.

- هل هي جميلة؟

- جدًا

- من أسرة طيبة؟

- لا بأس بها.

- وتعليمها؟

- متوسط.

- لا تتعجل؛ فأنت لا تزال طالبا.

- سأخطبها الآن، وأتزوجها بعد التخرج.

- والتكاليف؟

- لا أريد أكثر من ثمن الشبكة. فلا تسألني وأخبرني برأيك النهائي.

- إنها ليست زميلتك فتشاطرك الرحلة.

- نعم، لقد عرفتها في مصادفةٍ سعيدة، وأحببتها.

- كما تظن، عمومًا؛ ما دوري؟ علمًا بأنني لن أتردد في مساعدتك في أمرٍ أراه صحيحًا أو معقولًا.

- دورك أن تؤيد أخاك الصغير أمام والدنا.

- قد يرفض!

- إنه طيبٌ -كما تعرف- وسيقبل في النهاية.

- فكِّر مرةً أخرىٰ.

- فكرتُ كثيرا.

- أقنعني

- النتيجة واحدة.

- هل أخبرت أختك نهلة؟

- هي سلبية كما تعلم رغم كرمها معي، كما أنني لا أحب زوجها، سأخبرها في النهاية. بعد أسبوعين تكون العائلة كلها في ضيافتي في المصيف بالإسكندرية، لا تقلق.

٤

بـــين شـــطين وميَّـــه عشـــقتكم عنيَّـــه

يـــا غـــاليين عليَّـــه يـــا أهـــل اســـكندرية

جعل حامد من هذه الأغنية بساطًا لأحلامه، إنه يوقن أن النهاية ستكون علىٰ هواه، وإن اقتضىٰ الأمرُ تمثيل مناورة الغضب، وتحمل بعض الكلمات الخشنة، فالحاج عزمي رقيق المشاعر، وستهزمه عواطفه لصالح اندفاع حامد، أما الحاجة صباح التي تشعل كل صباح أعواد البخور وتتمتم باسم ولدها المهندس حامد، فقد أذعنت من أول الجولة، مادام الأمر سيسعد حامدًا الذي لا يخطئ أبدًا.

بعث حامد بشرىٰ الموافقة الوشيكة إلىٰ خطيبته المرشحة فوشوشت الرمال والنسيم والأمواج بالخبر، ودعتهم للفرح المنتظر.

***

حامد بذقنه العريضة، وأنفه المعكوف إلىٰ حدٍ ما يضيق بالكلام المطوَّل، يكره الجدل لأنه يصدع رأسه بلا طائل، وفي مقابلةٍ حاسمةٍ مع نفسه عزم علىٰ تقديم شبكةٍ من الذهب تليق

بمقامه وبما حكاه لخطيبته من مبالغاتٍ عن أسرته وثراء أبيه، ومكاسب سمير الكبيرة، ومد يده إلىٰ جيبه علىٰ حياءٍ مفاجئ، وأحصىٰ ثروته الشخصية فبلغ مجموعها خمسة جنيهات!!

لجأ إلىٰ "الفيتو" المنزلي إما بالكلام أو بالدموع، والفيتو يتمثل في صوت الحاجة صباح التي تبنت الفكرة، وناضلت ضد منطق الحاج عزمي -المعقول- حتىٰ قبل بسحب جزءٍ مما ادخره لدىٰ شركة الريَّان، واستعوض الله في أرباحه الجريحة.

وفي حفلٍ صغيرٍ افتعل فيه معظم أطرافه مظاهر البهجة، وكان الحاج عزمي أكثرهم افتعالًا، فقلبه يقطر حزنًا، ولا يجد ميزةً واحدةً يبرر بها ما يحدث من عبثٍ فانفرد بنفسه، وسمح لقطرةٍ من دموعه أن تشي بما في داخله، ثم رجع إلىٰ ابتسامته.

وفي جانبٍ من الحديقة الصغيرة المحيطة بالمسكن اختلىٰ بسمير وقال في لهجةٍ مبتلةٍ بالعتاب دون انتظارٍ للرد: "لم أصدَّه، لكنه سيصدُّ نفسه".

أما نهلة بأردافها المعلنة، وسمرتها النحاسية، وعيونها الصغيرة فهي توزع القبلات، ومصطلحات التهاني علىٰ

الجميع، وتنحني بقامتها الفارعة إمعانًا في ترجمة مشاعرٍ بلا رصيد، وكلما اقتربت من أمها المنتشية صباح التي شاركت في شراء الشبكة سمعتها تقول: **"يا لها من شبكةٍ تليق"**.

وعندما مرت علىٰ أخيها حامد وخطيبته قالت: "يا لها من جميلة، ستحمل عائلتنا لقب عائلة الجميلات" ثم ضحكت قائلة: "وأنا منهن بالطبع"، ولم يفتها أن تشير إلىٰ عايدة زوجة سمير ومضيفة الحفل الكريم في "الشاليه" الذي استأجرته في الإسكندرية، وكان اختيارًا رشيدًا.

تنقلت عايدة بين الحجرات بقامتها القصيرة، وجسمها الممتلئ، يُتَوِّجُه شعرها الأسود الناعم كخيوط ليلٍ فاتنٍ تتحدىٰ به شعر الجميع دون إبانة، وأنفها الروماني، وبياض بشرتها الضوئي.

تصنع سمير الاقتراب من زوجته، وقد تشابه لونهما وطولهما، وقال لها: " رائع يا عايدة" يشجعها علىٰ المزيد من عرض ملامح الرضا والسرور بما يدور، حتىٰ تمر الليلة علىٰ خير، فهي تنظر لهذا الحفل علىٰ أنه هزليٌ ولا معقول وسخيف، رغم جمال الخطيبة، إن عايدة تتكبد عناء الحفل

والضيافة رغم ضيق المكان، وفي ركنٍ من صالة الحفل ارتصت أسرة الخطيبة ظلًا إلىٰ جوار ظل، تنتبه له أحيانًا الحاجة صباح فتغمرهم بعبارات الترحيب، ولم تكف أغنيات " الكاسيت" عن الزعيق، وملء مساحات الصمت حتىٰ انفض السامر، ولاذ كلٌّ بفراشه، لكنَّ حامدًا لم يذق طعم النوم حتىٰ الصباح، ومن وقتٍ لآخر تغيب عيناه العسليتان في المرآة تحاورانه كعيني أرنبٍ مطارد:

"هل كان الحفل رائعًا كما يجب أن يكون حفلُ حامد؟ وهل تحققت مظاهر الأبهة التي يحرص عليها؟ وهل ظهر أهلُها بمظهر علية القوم؟ إنها جميلةٌ حقًا، فهل الجمال مبررٌ لكل ما لم وما لن يحصل عليه؟ وماذا أقول لزملائي في الكلية وكيف أتعالىٰ عليهم؟ آه، لا بأس، شيءٌ من الكذب يحلُّ المشكلة".

نفض عن رأسه ما تبقىٰ من تساؤلات، وعاد إلىٰ نفسه المتعاظمة:

"شكرًا حامد، لقد منحت الجميع فرصةً للسعادة".

***

خُطىٰ الأيام تدهسُ أشياء ثمينةً أحيانًا دون إبداء الأسباب والحيثيات، وهو سلوكٌ فوقيٌ مؤلم، وكما تفعل الأيام فَعَلَ حامد بعد مرور عدة أشهرٍ دون أن يُطلع أحدًا علىٰ ما يَفعل:

"إنني غير مستريحٍ لهذه الزيجة، وليس السببُ نظراتِ خطيبتي غير المفهومة لابن عمها، أو أن أسرتها أقل بكثير مما حكته، وإنما لأنها ثرثارةٌ لا يتحملها صمتي، ولن تُضيف لرصيد الأُبهة، وجمالها ينطفئ يومًا بعد يومٍ تحت حذاءِ ضِيقِ الحال، لكنها إذا ذهبت ستذهب معها "الشبكة"!! هاهاها وهل أنفقت شيئًا من جيبي لأندم عليه؟"

سحب ورقةً وقلمًا وكتب:

"خطيبتي الجميلة؛ لقد انتهىٰ ما بيننا".

وكالعادة لم يجد حامد ما يقوله لأسرته. قال الحاج عزمي:

- حسنًا فعلت، بعد عامٍ تتخرج وتبتسم الحياة.

رد حامد وهو يبتسم:

- كيف لا يكون الجمالُ جميلًا؟

٥

كيف لا يكون الجمالُ جميلًا؟

دق رأس سمير هذا التساؤل الصادم، ودبَّ شجارٌ مالحٌ بينه وبين عايدة، وما أكثر ما يدبُّ ويستشري كالنار في الهشيم حتىٰ تُطفئها ثلوج التراجع التي يستنفرها في كل مرةٍ، وعندئذٍ يقول في تنهيدةٍ لاهيةٍ مخالفًا ما في قلبه:

- ما أجملك يا عايدة.

ويصيرُ سمير فريسةً لتوابع تلك العواصف الغبية، فيعتذر عن الدفاع عن قضية أو يؤجلها إلىٰ أن تتكرم عايدة وتترك المياه تجري في مجاريها، ولا تتصدىٰ للشمس إذا أشرقت.

وبمهارة الربان الخبير أعد سمير لكل عاصفةٍ ردًا وخليجًا للإفلات، إنه يصارع ما يعرف نتيجته، والعجيب أنه يتعجب للنتيجة كل مرة، فكيف للعقل أن يتسمر في مكانه أعوامًا، ويستمرئ العصيان المستمر غير مكترثٍ بالنتيجة الصفرية.

- هيا نذهب إلىٰ المسرح، لديَّ دعوة مجانية بالصفوف الأمامية.

- هيا نسافر إلىٰ تونس للسياحة.
- هيا نشتري بذلة مناسبة.
- هيا نزور أصدقاءنا.
- هيا نحضر زفاف "س".
- هيا إلىٰ قبلة رومانسية ترطب الجفاء.
- هيا إلىٰ المسجد لنصلي.

ترد عايدة في كل مرةٍ في لهجةٍ قاطعةٍ محصنة:

- لا... لا... لا... لا...

إن "لا" هي أغنيتها المفضلة والوحيدة.

لم تعد عايدة تتذكر جواز مروره إلىٰ قلبها وهي طالبةٌ بالجامعة، وهو بلونه الأبيض الأوروبي، وطوله المماثل لها، وصوته العريض الذي يضارع عبد الوهاب إذا تحدث، وأنفه الكبير الذي يذكرها بالزعماء المشاهير، وأخيرًا لكنته الفلاحي الأصيلة. كل هذا أكلته العثَّة، وتبقىٰ ما قاله الحاقدون عنه، وهو مؤلمٌ ومريرٌ ومُزوَّر، ولكنه علىٰ هواها، إلا أنها في النهاية "أم الأولاد".

إن عايدة لا تريد أن تظلمه أو تظلم نفسها، وإنما فقط تدافع عن نفسها، تتصور أن اعترافها بتفوقه في أي جانبٍ يؤكد دونيتها في النشأة والثقافة والأسرة.

ويظل تاجها الغالي عفتها، ودحض كل ما هو شاعري حتىٰ في علاقتهما الخاصة جدًا، وبذلك وضعت نفسها في دائرة الأصدقاء، بدلًا من دائرة الحب، وظلت دائرة الحب خاليةً تحمل لافتة:

"مكانٌ خالٍ دافئٌ لصاحب الحظ والحظوة".

***

عاش سمير يقيم في داخله واحةً للجمال متىٰ وأينما كان، وجعله نبع سعادته، وقفازه الجميل الذي يدفع به رياح الحزن والآلام التي تنشرها عايدة في طريقه.

"أليست صور الجمال مبررًا كافيًا للحياة؟!"

رحل التساؤل بسمير إلىٰ الست "..." التي استعانت بالنار علىٰ الحياة، رباه! كانت جمالًا للآخرين إلا أنها بالتأكيد لم تكن كذلك لنفسها، فهانت عليها الحياة، بعد أن هانت هي علىٰ الناس، ربما هي مثل عايدة لا تنتبه إلىٰ الجمال، وإذا وقع

تحت بصرها أو دقَّ قلبها لا تفهمه، ولا تتفاعل معه.

ارتجف لتلك الخاطرة، فهل تؤول عايدة إلىٰ المصير نفسه؟!

ناداها، جاءت في تثاقل!

- اجلسي؛ مهم أن أتحدث معك.

- عجِّل فعيون البوتاجاز مشتعلة.

- اغلقيها مؤقتًا.

- أريد أن أنتهي، احك سريعًا.

- آه.. ليس شيئا محددًا، مجرد رغبة في الكلام معك.

- حضرتك مجنون تقريبًا، اذهب إلىٰ قضاياك وأنا إلىٰ مطبخي وناري.

هي لا تعلم أنها تركت في صدري نارًا أشد وأقسىٰ، تلاشت صورتها في عينيه، وتبقىٰ فقط أنفها الروماني. احتضنت عيناه الهاتف القريب منه، أدار قرص الهاتف المنزلي برقمٍ عشوائيٍ لا يعرفه، رفع السماعة إلىٰ أذنه:

- آلو...

- من حضرتك؟

- الرقم غلط.

عندما هم بإعادة السماعة إلىٰ موضعها، قفزت عايدة أمامه:

- من هي؟ ولماذا أنهيت المكالمة بسرعة؟

- لا أدري

ولاذ بفراشه، وتركها تُكمل اعتراضًا وتهديدًا من طرفٍ واحد. صبت عايدة غضبها علىٰ ولدها "ياسر" الذي تلصص برأسه من باب غرفته، فأغلقه علىٰ الفور، وهرب في دروسه من تساؤلاتٍ كثيرةٍ عن أبيه وأمه لا تجد بصيص إجابة.

وقبل أن ينام ياسر عاودته أحلام اليقظة أن يصبح قريبًا طالبًا في الإعدادية ليتخفف من وابل النصائح التي يتلقاها من كل البشر، وإن كان بعض هؤلاء أكثرَ احتياجًا منه لهذه التنبيهات العصبية أحيانًا، حتىٰ أنها تثير ضحكته التي يخفيها بيده، وللإنصاف ثمَّة شخص واحد لا يتبرع بنصحه وإرشاده مهما جرىٰ، وهو العم حامد الصامت عادةً، كأنه يدَّخر كلامه في حصالة كبيرة لا نعرف مخبأها.

٦

صحا من نومه وكوابيسه، الفراشُ بارد، غادرته عايدة منذ ساعةٍ لتدفئ مكتبها، وتعامل الناس وزملاءها بكل الذوق والرقة، وتحكي كل يومٍ عن يوميات عملها كرئيسٍ للحسابات، ولا بأس أن تقارنني بكلماتٍ مبهمةٍ ببعض زملائها الرائعين مع زوجاتهم، كما يحكون لها أيضًا، ولا تقصُّ أبدًا شيئًا عن الرائعات مع أزواجهنَّ.

عض علىٰ إبهامه يلوم نفسه:

"تخيل يا سمير أنك تقول لها عندما تنهض من نومها الخاطف:

صباح الخير يا زوجتي الحبيبة، هي أيضًا لم تقلها، هذا قُبحٌ مزدوج، لم نصل حتىٰ لمستوىٰ الحمامتين اللتين تربضان خارج شباك المطبخ، تتسابقان كل صباحٍ في إلقاء التحية في تراحمٍ موسيقي، ثم يعزفان معًا سيمفونية الجمال والمودة، والأهم من ذلك كله هو: هل هي تفكر بالطريقة نفسها؟ وهل تهتم بهذه التحية أو تسعىٰ إليها".

ضحك ضحكةً فاشلة، ثم كزَّ علىٰ شفتيه وهو يتذكر.

آه.. لقد حدث بالفعل منذ شهور، حيث قرر أن يفتح صفحةً جديدةً، ويضع بذرةً لشجرة وردٍ في حدائق الوقت بينهما، كان ذلك بالتحديد مع أنفاس الليل الأخيرة، جمع مشاعره المخملية الملونة بالحب، وفتح طريقًا إلىٰ عينيها، أرادها ليلةً ليست ككل ليلة، قال:

- أحمد الله أنني أعيش مع جميلة الجميلات الرقيقة الطيبة عايدة.

قالت متنمرة:

- قلت لي في الصباح إنني شريرة، إرس علىٰ بر يا سمير.

ثم تثاءبت بإخلاص، وجذبت غطاءها، قالت:

- بي رغبةٌ مُلحَّةٌ في النوم.

إنها تجيد إغلاق كل نوافذ العواطف.

قال وهو يَكَزُّ علىٰ شفتيه مرةً أخرىٰ:

- إذن تصبحين علىٰ خيرٍ يا حبيبتي.

قالت وهي غارقة في اللامبالاة:

- شكرًا.

همس سمير لنفسه:

"يا له من ابتكارٍ سمجٍ في اللغة، حين يُساءُ استخدام كلمة: شكرًا".

وفي لمح البصر، غادر الغرفة، وتمنىٰ لو غادر الشقة ورحل إلىٰ لا غاية.

كان رحيله إلىٰ الغرفة الثانية فقط، ولم تكتمل عزلته القصيرة جدًا، فقد لحق به حامد، حيث ترك غرفته وأدواته الهندسية، انشرح صدر سمير "جاء حامد إذن ليجلس معي، يؤنسني ويسرِّي عنِّي، حقًا الأخ أخ، يزين الزمان والمكان، ويجعل الحياة محتملة، وربما ميزة حامد الكبرىٰ أنه يستمع كثيرًا، ويكادُ لا ينطق إلا إذا....".

حامد سأل سميرًا المتأهب لمغادرة الشقة:

- لماذا تنزل في هذا الوقت المتأخر من الليل، والأمطار علىٰ أشدها؟ يمكنني أن أنزل بدلًا عنك.

- لن أنزل الآن.

- حسنًا، لي طلب.

- عرفت، تريد نقودًا، أما زلت تدخن؟

- .....

لقد سكت انتظارًا لما سيحصل عليه، وليس خجلًا أو حرجًا.

نظر إليه سمير متوترًا، فهو بالفعل لا يمتلك غير ثمانية جنيهاتٍ فقط.

وكم شرح سمير لحامد أن زبائن المكتب انقرضوا، وتقلص الدخل كثيرًا، وأصبح راتب عايدة هو المنقذ، عسىٰ أن يكتفي حامد بما يرسله له والده من مبالغ سخية.

حامد -كما هو معروف- يسمع ولا يعلق، عدَّ سمير كل ما يملك وهي يتمتم:

- هذا كل ما أملك، وما هو موجودٌ بالشقة.

- ....

- إذن نقتسم المبلغ، هذه أربعة جنيهات لك، وأربعة لي وللأسرة.

دسَّ حامد الجنيهات في جيبه قائلًا:

- شكرًا.

- وعاد إلىٰ مكتبه وأدواته الهندسية.

وكأن سميرًا ابتسم، فقد ربح هذه الليلة كلمة شكرًا مرتين بفتورٍ من فصيلةٍ واحدة.

٧

من العجب العجاب أن الدائرة هي التي تحكمنا وليس الخط المستقيم، فالخط المستقيم ينقلنا دائمًا إلىٰ نقطةٍ جديدةٍ ومختلفةٍ حتىٰ وإن تشابهت مع الماضي.

أما الدائرة فالنقطة التي نبدأ منها ننتهي إليها بعد حينٍ طال أو قصُر، حتىٰ الطبيعة تمارس المنطق نفسه، فالشتاء مثلًا يمضي ويستمر إلىٰ أن ينتهي، ثم يُطل من جديدٍ في موعده تمامًا.

استولت هذه الإرهاصة علىٰ عقل سمير وهو في طريقه إلىٰ بلدته "بسيون"، كأنه يعود إلىٰ الرحم الذي انطلق منه، "الطريق إلىٰ بسيون" مفروشة بالأشواق لأمه الطيبة وأبيه الأطيب، ولرائحة الهواء الخضراء، ولقاء بقية الأصدقاء هناك، ومتعة الثرثرة البريئة.

حين وصل إلىٰ باب بيت العائلة ذي الطابقين، لمح كومًا من الحجارة، في مكان بيت الجارة الراحلة "..."، الإنسان مضىٰ، والبناء انقضىٰ، لكنَّ الدائرة تدور، ويقام بناءٌ آخر يسكنه آخرون، يظنون أن المكان بهم ولهم، وأنهم خالدون

رغم أنهم لا يملكون ثمن بناء هرمٍ كبير يناطح الزمن، فما أكثر بنايات الأمنيات.

تركته يده ولوحت في الفضاء باتجاه كوم الحجارة:

"عليك السلام يا طيبة، أتمنىٰ أن تكوني قد عثرتِ علىٰ جيرانٍ أفضل منا، يعرفون قدرك، وخير قلبك، ويحسنون الظن بك، فربما اشتعلت النار فيك أمام الموقد ودون قصدٍ منك".

أفاق سمير علىٰ يد أبيه ترتفع إلىٰ أقصىٰ قدرتها ثم تنزل مصافحةً يده في سلامٍ حميمي، روىٰ بالمحبة نفسه التي جفت وتشققت في القاهرة، وتعانقا عناقًا أقام الجدران المائلة.

اكتمل حفل الحنان، ونسيم الأمان، بقدوم الحاجة صباح، التي تجسد حبها له في الوليمة الكبيرة العامرة بكل ما يحبه سمير وهي تحفظه عن ظهر قلب، وقبل أن تسأله عن ابنه ياسر، سألته عن ابنها حامد، قالت وهم يمضغون قطعًا من لحم البط:

- لقد قمتما أنت وأختك بواجبكما في إيواء حامد.

قال الحاج عزمي مؤكدًا وهو ينظر إلىٰ سمير:

- طول عمرك رجل يعتمد عليك.

- هـذا واجبـي يـا حـاج، بعـد شـهور يتخـرج، ويصـبح مهندسًا بحق، وقد جهزت له مفاجأة إذا نجح بتقديرٍ مشرِّف، وسـأعلنها في حينهـا. لكـن قـل لـي: مـا حـال الريَّـان والهـدىٰ والشريف؟

- منتظمون في صرف الأرباح العالية.

قالت الحاجة صباح:

- لولاهم لكنا في حيص بيص.

وبعد دقائق صمتٍ بهيجٍ قال الحاج:

- هل تريد دعمًا سريعًا؟ أنا جاهز، فأنـت لـم تكلفنا إلا القليل.

- نزيدك ولا ننقص منك يا والدي الحبيب.

مـد الحـاج عزمـي يـده بـأوراقٍ ماليـة، وغرسـها في جيـب سمير، إلا أن سميرًا بادر بإعادة النقود شاكرًا في رقة.

***

أقبل الليل بعباءته الريفية، وتواتر بعض الأقارب المحبين لـ "سـمير"، بعضـهم يتلـذذ بـأن يحكـي عـن نفسـه وعـن بلـده

بسيون، والبعض الآخر حاصره بأسئلةٍ فضولية لا رابط بينها، وهو يجيبهم سعيدًا برحيق هذا الوصل الذي يرتق ما تمزق، ويستدعي رصيدًا من الجمال طرب له الزائرون.

امتلأ سمير بالشعور بأنه سعيد الحظ أنه ابن هذا الرجل وتلك المرأة وهذه البلدة بما فيها من حكايات، وأضداد، وغرائب، وطيبة، وشهامة، وإذعانٍ مذهلٍ لبعض أهل البلد سواءً في الطبقات العليا أو الدنيا، كلٌّ علىٰ قدر طمعه، وامتداد بصره إلىٰ حقوق غيره، ومنهم أيضًا المتميزون، من هو يساري أو يميني، ومن هو إسلامي أو مسيحي، ومن هو بلا هوية. وفي كل هؤلاء توجد مساحاتٌ من الطيبة، وبذورُ بطولات، وأنيابٌ سامة.

القرية تبدو هادئة، يضمها -في مجملها- إزار من المحبة، ولكل واحدٍ من أهلها حلمه الخاص..

لكن لم يتشكل حلمهم العام الذي يتجمعون لإحيائه، أو هم استغرقوا في حلمهم الخاص ولم يتركوا مكانًا للحلم العام، يجهلون أنه نقطة البداية في حلمهم الخاص، ودائمًا تطفو سحائب بيضاء علىٰ السطح، وخلفها جبال من عدم التوافق.

قال سمير لابن خالته:

- هل انتهت مشكلاتك مع أخيك؟

- للأسف لم تحل بعد، لكننا اتفقنا علىٰ هدنة قصيرة.

وسأل ابن عمه:

- ما أخبار حبيبتك؟ هل لَانَ أبوها؟

- قريبًا أدعوك إلىٰ حفل الزفاف.

وفي لهجةٍ أكثر حدية، مع توجسٍ أكبر قال لجاره وصديقه التاريخي:

- وما حال أحزاب المدرسين؟ والمفترض أنهم قدوة.

- سأحتاجك غدًا، سنعقد جلسة صلح، ستنجح بوجودك، فمعظمهم من أصدقائك.

وكأنه كان في مهمةٍ رسمية كان مكلفًا بها، انتقل الحوار فجأة إلىٰ الدعابات والنكات وطرائف الأحداث.

وطرق أسماعهم وقلوبهم صوت أذان العشاء، اتجهوا إلىٰ المسجد للصلاة، وقد داخلهم جميعًا إحساس بالأمن والصفاء.

* * *

سمير يسلِّمُ بأن الثواني القادمة، والسنين المقبلة، ليست ملكًا لنا، إننا نملك ما مرَّ فقط إذا لم يتسرب، أما القادم فقد لا يجيء، وإذا جاء فقد لا يجدنا في انتظاره، والماضي والحاضر والمستقبل يجمعها عنوانٌ واحدٌ وهو: المؤقت. وقد اعتبر سمير هذه الفكرة كنزًا حقيقيًا.

الشعور بالمؤقت يخلصنا من متاعب وقلقٍ وإحباطاتٍ قنفذية، ويعلم سمير أن هذه الأفكار ليست من صناعته هو، وإنما بتوفيقٍ من الله كانت، وهي نتاجُ عقلٍ لا فضل له في إنتاجه، وصار شعاره الأعلىٰ: لا مشكلة. يبرد به قلقه وهموم الآخرين.

ثارت هذه الفكرة من جديدٍ في عقله بعدما اهتزت الأرضُ تحت قدميه، ومالت الجدران والثريات، وهربت الدماءُ من وجه أمِّه الطيبة، وهلعت عينا والده، وركب الرعبُ سميرًا، الجميع يتحركون في كل الاتجاهات حركة التائه في صحراء شاسعة، وقد ارتجت نظراتهم وأفكارهم، وتساقطت محتويات المطبخ، وتهشمت علىٰ الأرض كإنذارٍ شرس.

كلمةٌ واحدةٌ نطقها الجميع دون اتفاق، زلزال.. زلزال،

هرعنا جميعًا إلىٰ الشارع لنجد الكثيرين من الجيران رجالًا ونساءً وأطفالًا يرتجفون، وبعضهم في نصف ثيابه أو أقل، والبعض يقرؤون آياتٍ من القرآن، وآخرون تجمدت ألسنتهم لكن العيون التي مددها الخوف تتحاور.

وبعد انتهاء الهزة المروعة، ظل الناس واقفين بعض الوقت، لا يثقون في نتيجة عودتهم إلىٰ بيوتهم، وطوال ثواني الزلزال الطويلة جدًا، واصل الحاج عزمي قوله:

(لا إله إلا الله).... استر يا رب.

ومن فضل الله أن منَّ علىٰ أسرة عزمي بسلامة البيت فلم يُهدم، وإنما انفلقت بعض الجدران، وأسفرت عن شقوقٍ كبيرةٍ مقلقة. وعلىٰ مقربةٍ منه دوَّىٰ سقوط بعض أسقف وجدران عددٍ من البيوت القديمة.

كان غريبًا أن يكتفي بعضُ الواقفين بحمد الله أن بيوتهم نجت من الانهيار دون تفكيرٍ في بيوت الآخرين كأنها تتبع أعداء الوطن، فلم يتفوهوا بكلمةٍ واحدةٍ للمواساة، اللهم إلا الحاج عزمي الذي سعىٰ إلىٰ أقرب البيوت المنهارة، وهالته دموع طفلةٍ تهاوىٰ بيتها فمسح دموعها بيديه، ووعد أهلها

بالعون المناسب، وحذا رجلٌ آخر حذوه، فقبَّل سمير جبهةَ أبيه شاكرًا له ما فعل، وقال له: سأحاول أن أشارك أنا أيضًا ولو بالقليل، لكن لابد من ترميم بيتنا سريعًا توَقِّيًا لأي مشكلة.

واستطاع سمير خلال ساعات أن يتحدث إلىٰ زوجته وأخته، ليطمئن علىٰ أحوالهم فطمأنوه، ومكث في بسيون يومين آخرين لإنقاذ بعض البيوت المجاورة.

٨

شغل الزلزالُ الناس لفترةٍ طويلة، يرونه إنذارًا قاسيًا من السماء، ليستعيد الناسُ نضارة أرواحهم، ويكونوا إنسانيين بحق، ومن الجميل أن يترتب عليه تهدئة العواصف بين سمير وعايدة.

لا شيء يستحق كل هذا التكالب، مادامت النهاية قريبةً وحتميَّة، وقد يعجل بها زلزالٌ قريبٌ ومحتمل، لكن حامدًا لا يستسيغ هذه الحكايات والذكريات، إنه يعتني كل العناية بما تحت قدميه، ولا يُحب أن يجادل نفسه فما بالك بالآخرين؟ "لقد مرت شهور علىٰ هذا الحادث فلماذا نذكره؟" هكذا قال لنفسه، وها نحن الآن في احتفال الأسرة بحصول حامد علىٰ البكالوريوس، ولم يكن ملائمًا أن تقول نهلة لسمير وهي ضيفة عليه:

- آخر مرة كنا هنا، يوم حدوث الزلزال.

حاول سمير تذويب المعنىٰ الذي أزعج أخاها حامدًا فقال:

- اطمئني لن يسقط الجاتوه علىٰ الأرض، وستنالين نصيبك أنت وأسرتك.

وتقدم زوج نهلة ووالداها، وأخذا قطعًا من الجاتوه، كما قامت نهلة بمهمة توزيع الجاتوه والمشروبات علىٰ الحاضرين، بالاشتراك مع صديقتها وزوجة أخيها عايدة، ورفع حامد صوت جهاز الكاسيت بأغنيات لشادية، وكان أكثر الحضور فرحًا أطفالُ الأسرة.

طلب حامد من أخيه وأخته أن يستعد كل منهما لبناء عمارةٍ سيشرف هو علىٰ بنائها باعتباره مهندس عمارة، فقاطعه سمير في نبراتٍ رزينة:

- ابدأ أولًا بترميم بيتنا في بسيون.

غاب سمير لدقائق، وعاد وقد غمرته نسائم البهجة، وبيده مظروفٌ قبض عليه سمير بحرص، ورفعه إلىٰ أعلىٰ، وقد تعلقت به عيون الحاضرين، فقال وهو يمسك بكتف حامد:

- هذه هديتي لأخي المهندس حامد، وهي ثمن تذكرةٍ إلىٰ باريس ذهابًا وإيابًا.

تصافحا واحتضنه سمير في ودٍ شبه أبوي، وتبادلوا جميعًا أزهار الأماني، ولأن نهلة لا تعمل اعتبرت هدية سمير تمثل الأسرة جميعًا.

ومع اختلاط الموسيقىٰ بالضحكات والكلمات دوَّىٰ رنين الهاتف المنزلي -وكان هو المتاح فقط آنذاك- اندفع حامد إلىٰ الهاتف ليرد قائلًا لأخيه:

- المكالمة لي.

وتحدث حامد بصوتٍ خفيضٍ حتىٰ لا يسمعه أحد، وشيئًا فشيئًا تصاعد الدم إلىٰ أذنيه، ومضىٰ يحك ذقنه العريضة من فرط الانفعال..

فقالت نهلة تناوشه:

- ارفع صوتك فآذاننا في إجازة.

أسرع حامد بإنهاء المكالمة خجلًا وقال:

- سأعترف لكم بسرٍ جميل، توقعوا دعوةً قريبةً لخِطبةٍ عاقلةٍ هذه المرة، بعد باريس بالطبع.

***

شهرٌ من السعادة قضاه حامد قبل سفره إلىٰ باريس، كاد خلاله أن يكتب علىٰ النجوم خبر سفره الذي نشره بزهوٍ وعُجبٍ بين من يعرفه ومن لا يعرفه، داعبته أحلامه المختبئة

بعيدًا عن عيون الناس، وشاركته الحاجة صباح مشاعر الفخر فقالت:

- ترعاك الملائكة أينما تكون يا حبيبي.

أما الحاج عزمي، فآثر مراتع الصمت، ودون أن يدري أحد التقىٰ حامد حبيبته وزميلته الرشيقة جيهان التي يناديها زملاؤها وزميلاتها باسم ميرفت للشبه الكبير بينها وبين الفنانة ميرفت أمين. تحدثت عيونهما وأيديهما وشفاههما بأجمل الكلام وإن قلَّ، فبينهما وبين الكلمات خصام، وهكذا كان شأنهما في كل مكان، لا يدخران الكلمات لأنها لم يتم إنتاجها بعدُ في دهاليز العقل.

وعلىٰ باب مطار القاهرة الدولي قال سمير:

- تعود سالمًا بإذن الله، فإننا نحبك.

فرد حامد بعناقٍ أقوىٰ من الحروف. وبعد ساعةٍ ونصف خرقت الطائرة ستائر الفضاء، وتضاءلت الأوتار التي تشد قلب حامدٍ إلىٰ عالمه الأول أو انقطعت، وتنفس بعمقٍ رغم أنه يمتطي الفضاء، ومع ظهور السحاب تحت عينيه ابتسم متسائلًا:

- هل أمتلك يومًا ناطحة سحاب!

وأفاق علىٰ سؤالٍ آخر:

- هل أجدُ في باريس عملًا أفضل من غسل الأطباق، أو جمع العنب؟ لكي أمكث أطول وقتٍ ممكن؟

٩

لو لم يكن هناك حقيقة اسمها الحظ لما وجدت كلمة الحظ في المعاجم والجماجم معًا، وقد آمن حامد بالحظ رغم أنه لم يسند إليه ظهره ذات يوم، هو يعرفه جيدًا، ذلك المراوغُ المقبل حينًا والمدبرُ أحيانًا، ومن الجميل حقًا أن ننسبه إلىٰ رضا الوالدين أو التبحر في الدين، لكنها ملاحظاتٌ لا ترتقي إلىٰ القانون الحاكم والأمر اللازم، وإلا فكيف يروح الحظ ويجيء والرضا قائمٌ لا يتبدل.

مهما يكن السبب، فالمهم أن الحظ غرَّد في مكتب سمير وتولىٰ عددًا من القضايا ذوات العيار الثقيل، وما يتبعها من مالٍ وفير.

وفي يومٍ جميل وقفت أمام العمارة عربة حمراء علىٰ الزيرو ستكون في خدمة عايدة وابنها ياسر الشقي، واقترح سمير شيئًا من اللهو البريء احتفالًا بهذا الكائن الأحمر الذي أسعدهم جميعًا، فترك سمير لياسر أن يختار الفيلم الذي يفضله، وكانت مفاجأة لم تخطر علىٰ باله أن يكون أحد أفلام الموضة عنوانه **"العربة الحمراء"**، طلب سمير من عايدة أن

تحدد اليوم والساعة لمشاهدة الفيلم في السينما بعد هجران طويل، فقالت في حسم **"جنرال"** تاريخي:

- لن أذهب

- إذن لأذهب أنا وياسر لأفرحه.

- لا شأن لي.

تعاطف ياسر مع أمه، وفضَّل تأجيل الفكرة، وهو يعني الرفض المهذب.

"حسنًا" قَالَ سمير، ولاذ بفراشه، ربما يشاهد الفيلم في أحلامه.

***

بعد شهرٍ عاد حامد من باريس شخصًا آخر، صبغت وجهه الشمس -رغم أنها بلاد الغيوم- وبرزت عضلاته قليلًا، كأنه كان يعمل في رفع الأثقال.

وحين رأىٰ السيارة ضحك فرحًا كما يبدو، وقال:

- جميلة فعلًا، مبارك، عقبىٰ للمرسيدس.

رد سمير في هدوءٍ كمن يقرر حقيقةً:

- لا أفكر فيها.

- .....

- لماذا سكتَّ؟

- لأنني أفكر فيها.

- .....

- لماذا سكتَّ؟

- أفضل الأشياء هو ما أستطيع الحصول عليه.

- .....

- لماذا سكتَّ؟

رد حامد وهو يشعر باتساع الهوة بينهما:

- لم أفهم معنىٰ كلماتك.

- لا أظن؛ إنك لا تريد أن تفهم، والفارق بينهما كبير.

جرت الدقائق والساعات والأيام والشهور، ولم يفهم أحد من حامد ماذا كان يفعل غير جمع العنب في فرنسا، وبمنطق الفيتو والأمر الواقع تزوج الصامت حامد من

الصامتة الجميلة جيهان، واشترىٰ له الحاج عزمي شقة في مدينة طنطا القريبة من بسيون، لأن حامدًا ضج من حياة القرية، وقد تكلف الحاج عزمي الكثير رغم أنفه، وتضاءل عائد الأموال المدَّخرة، لكنه يبتسم دائمًا حتىٰ لا يكون سببًا لضيق أحد.

وكان التحاق حامد مهندسًا يتبع وزارة الإسكان في مدينة طنطا حافزًا قويًا علىٰ اتساع أحلامه، فهو يرىٰ العمائر تشق الفضاء في شموخ، وهو الذي خطط لها وتابع إنشاءها لتؤول في النهاية إلىٰ آخرين.

قرص حامد ذقنه بأصبعيه في صمت، وحين يلتقي زوجته جيهان -التي تعمل بقطاع قصور الثقافة- لا يجد مبررًا ليحكي لها عن أحلامه ويكتفي بالضحك، وهي الأخرىٰ تضحك، لكنها في شوقٍ عارم لأن تسمع، تقول لحامد: احكِ، فيضحك ويقول: غدًا، ثم ينام.

١٠

الحاج عزمي تلهو به المشاعر وتحيره أحيانًا، ولكنه يحس بأمواج الأحاسيس تتدفق في عروقه، ولا يجد من يحكي له ليكشف خوافيها التي تؤرقه.

منذ طفولته الصعبة كان أفضل الحلول أن يتأمل ما حوله دون كلام، وأكثر من مرة قص علىٰ أقرانه وأقاربه الصغار بعض أفكاره عن الحياة، كانوا ينصتون إليه في بلاهةٍ، وعندئذٍ أدرك مدىٰ الفواصل والجدران والأنهار التي تباعد بين الناس، ولا يعترفون بذلك، يخدعون أنفسهم، حتىٰ الحاجة صباح زوجته الجميلة تسمعه كثيرًا لكنها لا تعلق أو تناقش، أو حتىٰ تعترض. فما جدوىٰ الكلام؟

همس لنفسه: "شكرًا طفولتي الصعبة" لقد تعلم في طفولته من أقاربه والجيران دروسًا مهمة، تعوَّد ألا يخاف، وتفوق علىٰ أقرانه حتىٰ في الألعاب، وأدرك أنه قادرٌ علىٰ النجاح، ونجح كثيرًا وفشل قليلًا، لكنه الآن يرىٰ الساعات والدقائق ذابلةً صفراء، والخوف يطلُّ حثيثًا، ويطلُّ أكثر من الشقوق التي خلَّفها الزلزال، يسوده خوفٌ باردٌ لم يتخيله من

قبل، طلب من حامد أن يعالج هذه الشقوق بخبرته كمهندس، فإذا به يقرص ذقنه في اهتمامٍ بالغٍ ويقول:

- في المرة القادمة، فالشقوق ليست خطرةً إلىٰ هذا الحد.

كاد الحاج عزمي بيديه المعروقتين، وعينيه اللامعتين بالذكاء والتوقد والطيبة معًا أن يقول له:

- يا بني، الخوف يطلُّ من هذه الشقوق، كأن أشباح الموت تتخللنا.

تسمع الحاجة صباح الحوار بانتباهٍ شديد، وتبتلع تعجبها، تقول لنفسها حتىٰ تتقي ردًّا قد لا يرضيها:

- لابد أنه مشغول، كان الله في عونه.

وذات ليلةٍ باردةٍ دقَّ حامد باب سمير، وطلب منه أية نقودٍ متاحة، فإن زوجته أنجبت بنتًا، ويريد أن يحاسب المستشفىٰ، ودون سؤال أعطاه سمير ما معه دون أن يستبقي شيئًا لنفسه، بعد معارضةٍ شديدة من زوجته عايدة التي نامت غاضبة.

قال لها سمير:

- كله سلف ودين

قالت:

- أنت واهم

***

كانت الوليدة التي سموها "مريم" بارقة خيرٍ علىٰ والديها، فقد تسلم الموافقة علىٰ العمل في دبي، وسافر في وقتٍ قياسي، وودع كل الأسرة، وكانت الحاجة سعاد هي مسك الختام، عطرته بدعائها الملهوف:

- تعود بإذن الله سالمًا غانمًا.

وحدثت نفسها: جاء الفرج يا حاج عزمي.

يبدو أن أيادي الحظ كثيرة ويمكن أن تتحرك في وقتٍ واحدٍ وإن تناقضت، فيدٌ تمتد وأخرىٰ تنسحب، وهذا ما حدث في عائلة الحاج عزمي، فما أن سافر حامد حتىٰ ارتبكت شركات توظيف الأموال التي أودع فيها الحاج أمواله وأمانيه، وتلكأت الفوائد وتناقصت، ولا تزال شقوق الجدران

تتسع، ويتسلل منها خوفٌ أكبر.

ومر العام الأول وقد ظللته الشكوك والظنون، وفي العام الثاني ازداد اضطراب أحوال شركات الأموال وعوائدها، فلم تعد تكفي غذاءَ ودواءَ الحاج وزوجته، وهو الذي اعتاد علىٰ الرفاهية، لم يكن يتصور أنه سيشعر بالاختناق إلىٰ هذا الحد.

شعر سمير بهذا الدخان الكثيف والحيف الذي يحاصر والديه، تجرأ علىٰ إباء الحاج عزمي الذي يمنعه من الشكوىٰ، سأله ووجهه سطور من الحزن لا آخر لها:

- أيها الحاج العظيم؛ ما بك؟

وأقسىٰ من الصفعة كان الرد، وأسود من الظلام والسخام ما رآه، كأن رصاصةً استقرت في قلبه، لقد طفرت دمعتان من عيني الحاج عزمي، حاول أن يمسحها بكم جلبابه، وحين قبَّل سمير يد أبيه ثم جبهته تساقطت دموعٌ كريمة من شاهقٍ، قال سمير:

- ليس أبي من يبكي، لي الهلاك، وله العزة والسلامة.

علا صوت سمير حتىٰ سمعه أبوه:

- ما عشنا إذا لم نوفِّك حقك، وحقك أن تحيا كريمًا كما تحب فكم أكرمتنا، مالنا هو مالك، كل ما كانت تدفعه لك الشركات كل شهر سيكون بين يديك بلا نقصان، لا تحزن أبدًا يا أبي، نحن تحت قدميك فمرنا بما تريد، أنا ميسور، وحامد ميسور، وسأرسل له ليسدد لك بعضًا من ديونه.

❊ ❊ ❊

تساءل سمير، وقد التهمه الحزن، وحفر أخاديد في قلبه، كيف لا أدري أن الشمس علىٰ نافذتي ما دمت لم أحتج إليها؟ هل هو غباء المشاعر أم غيبوبة الأنانية؟

نحتاج إلىٰ من يصفعنا لنفيق، ونفتح أعيننا في الوقت المناسب دون رجاءٍ أو طلب.

بكىٰ سمير ندمًا لأنه حضر متأخرًا، ونقل أحزانه إلىٰ حامدٍ في دبي، واتفقا أن يتقاسما مبلغ الثلاثمائة جنيه كل شهر، وغردت العصافير من جديد، وباح القمر بضوئه الحاني، فقد رفرفت الابتسامة علىٰ شفتي الحاج عزمي.

ومضىٰ شهر، وشهران، وستة أشهر، وتسعة أشهر، ثم كانت الكارثة، كيف يجفُّ النهر وقاعه ليس مثقوبًا؟!

مرةً أخرىٰ بكىٰ الحاج عزمي، وأنا الذي عاهدت نفسي، وعاهدت الله وعقدت اتفاقًا مع الدموع ألا تعود، ومع الحزن أن يبتعد، ومع الغفلة أن تهلك.

نعم بكىٰ مرةً أخرىٰ، هذه هي الحقيقة القاتلة التي لا تُطاق: لماذا يا حاج ضاقت الحياة، وما كانت تضيق من قبل؟ كيف يا حاج؟ لم تعد النقود تكفي بعد أن اختفت نقود حامد منذ شهور، حاولت أن أنتحل أسبابًا أو أعذارً فلم أجد.

سلَّمت له المبلغ كاملًا، وأوهمته أنني سأحصل من حامد المبلغ المعتاد، وبالطبع لم يصلني منه شيء. وحين أثير الموضوع أمام الحاجة صباح، قالت منزعجةً مكسورةً: "الغائب حجته معه".

١١

تلهث الأيام والليالي والشهور والسنين وراءنا، تلحق بنا، وقد لا نلحق بها، ويصبحُ ياسر محاميًا تحت التمرين في مكتب أبيه سمير، وفي الوقت نفسه عزم علىٰ الزواج من فتاةٍ وافقت عليها عايدة، ودارت عجلة البحث عن شقة، وأصبحت المدخرات في مهب الطلبات الملحة، وبعد أن استقر المقام بحامد الهمام في القاهرة شرع في بناء حلمه العتيق، وهو تشييد برج الشروق، ونشر أخباره في كل فجٍ عميق، وأن نصيب ابنته من البرج شقتان في بعضهما تُفتحان، هدية زواجها الميمون، فانهالت عليها طلبات الزواج، وأدركت جدتها صباح أنهم أصبحوا من عِلية القوم، وأن جناحهم فوق أي جناح.

أما الحاج عزمي فسلَّم أوراق الكفاح، وصارت الذكريات بقايا رفات، وواصل الدعاء: يا رب الأرض والسماء، نجنا من البلاء، يا أرحم الراحمين، طالت بنا السنين، وما لنا معين، فكن لنا المعين. ومع شروق كل صباح يقول: اقترب الرحيل، وما بقي إلا القليل. ولم تعد عيناه تنظران حوله وإنما إلىٰ داخله وإلىٰ ما بعد الحياة، يحكون معه فيهز رأسه فحسب كأنه في غياب، ويجيبهم بلسانٍ غير لسانه،

يقبلون يديه فيقبلهم بعينيه، يوافق علىٰ كل ما يقال، فلم يعد للرفض مجال، ولا قيمة للأبواب، فلابد من حسابٍ وعذاب، يحزن للناس! يظنونه غافلًا عنهم، وهو الحزين لغفلتهم، يا الله!! انتهىٰ وقت سداد الدين، وهو ثقيلٌ ثقيل، فكم أعطىٰ الحاج عزمي، وما ردوا العطاء، بل وما اعترفوا به، لكن عند الله خير الجزاء.

عجبًا لحامد! كلما اقترب من أبيه طلب له الشفاء، وكأن ما بينهما محض دعاء، بينما عيون أبيه قضبان بلا مثال، تنقلت عيناه بين هذا المهندس وبين شقوق الجدار، ثم أغلق جفونه فتركوه لعله ينام.

لم يستطع سمير أن يبعد تلك الومضات القابضة علىٰ عقله وقلبه، وهو يطالع جريدة الأهرام، روتين كل يوم، وتضخم في رأسه تساؤلٌ عصف به: "إذا كان حامد أهمل معالجة شقوق وشروخ الجدران، فماذا فعلت أنت يا سمير!! لماذا لم تعالجها أنت؟ لا تقل إنه اختصاص حامد الذي وعد بذلك، إنك تبحث عن مبرر للإفلات من الواجب، لا تقل إنه أخطأ فأنت أيضًا أخطأت، وهل المبلغ الذي كنت تدفعه لأبيك وأمك حقق لهما بحبوحةً في العيش، أم كان أقل

القليل؟ ألم يكن في وسعك أن تعطيهما أكثر؟ أم فضلت عايدة وياسر وأنانيتك عليهما؟ حقًا أنت ساهمت بأكثر من حامد، شأن من يشعر بالفضل أو الرضا لأنه أطلق علىٰ شخصٍ ما رصاصةً واحدة، بينما غيره أطلق عليه عدة طلقات، وتظن نفسك رحيمًا أو مثاليًا؟!"

ومع كل خاطرة وسؤال تقطر من عيني سمير دمعةٌ أكثر من حارقة، فارتمىٰ في أحضان سطور الأهرام طلبًا للنجاة من نيرانٍ فات وقت إطفائها، وآلام لا تتقادم.

رأىٰ صورتها، المذيعة الطيبة التي يتابعها، والتي زارته منذ عامين في مكتبه، "فاطمة حسين" قال لها حين التقاها:

- فيك صورة أمي وخالتي، وضحكات نسيم القرية، وحنان ليلها ونقاء صباحها.

أجابت بابتسامة خجول، وتمتمت بكلمات حصدت معانيها الطيبة دون أن يسمعها.

كيف يتسق هذا الخبر مع ما يعرفه عنها، يا إلهي!

تفجرت كلمات الخبر في رأسه، "الإذاعية الشهيرة (فاطمة حسين) يقتلها ولدها الوحيد خريج كلية الآداب

بمدية حادة وهي تصلي...."

لم يستطع أن يقرأ بقية الخبر الذي طعنه في قلبه هو أيضًا ولن يقرأه، فكل مبررات الكون والتاريخ لن تكون سببًا مقنعًا لقتل هذه السيدة الطيبة أو أي أُمٍّ غيرها، راح يشطب بقلمه سطور الخبر حتىٰ محاه تمامًا، كأنه يلغي الحادث لتعود فاطمة ببسمتها أو صوتها الذي ينير قلوب المستمعين.

دخل ياسر معتذرًا عن التأخير، كان سمير في أتون جحيم الخبر، انتبه له، تسمرت عيناه علىٰ وجه ياسر:

"هل يمكن أن يفعل ياسر ذلك في نوبة غضب! والأم الطيبة صباح المفتونة بـ "حامد" هل يمكن أن يفتك بها في لحظةٍ مجنونة، ثم يجتهد بعد ذلك علماء النفس والأطباء النفسيين في تفسير الأسباب، وحين يعجزون يقولون: كان مجنونًا".

وآلمه أكثر نشر هذه الحادثة البشعة في سطورٍ محدودة، فهل أصبحت تلك الجرائم المزلزلة شيئًا اعتياديًا! ولماذا لم يكن الأمر كذلك منذ عشرين عامًا، تذكر واقعةً حدثت منذ ربع قرن ارتكبها شاب اسمه مورو قتل أمه، فارتجت الصحف

وأفردت لها الصفحات شهورًا طويلة.

وغرق سمير في لججٍ أخرىٰ من الدهشة الحزينة، هل القتل مديةٌ ودماءٌ فقط؟!

أليس إهمال حامد المسافر في حق والديه لون من القتل علىٰ البارد؟ ربما هو أفظع من القتل الدامي الذي تتبدد آلامه في لحظاتٍ أو دقائق، بينما القتل البارد تسري آلامُه السامة المهلكة شهورًا وسنوات.

ضاق كل شيءٍ في عينيه، وانغلق صدره، جمع شتات نفسه بمشقة، وغادر المكتب ليجلس وحده علىٰ المقهىٰ المجاور وينظر إلىٰ لا شيء الذي يفضي إلىٰ كل شيء.

١٢

تضيق الحلقات حتىٰ تكاد تخنقنا.

تتجمهر دفاعاتنا لتتنفس في ممكنات الحياة.

المحن تتوالىٰ، شقة لياسر، حامد يغرق في جحوده هاربًا في أحجار عمارته الجديدة، نهلة تتوغل في سلبيتها، ويصبح زوجها وولداها ظلالًا "ربوتيه"، وعايدة تثقب سفينة أسرتها ثقبًا جديدًا كل يوم بإزميل الغباء والجفاء، والحاجة صباح تتخطف حبال الغد الوهمي، وآخرون يستمرون في القبح أو يخلقون قبحًا أنيقًا، والجمال في حياتهم يتآكل، يوشك أن يسقط، وكل هؤلاء علىٰ مدًىٰ قريبٍ من النجاة إذا فكروا بحيادية، وبعدلٍ لم يمارسوه من قبل، إنهم الآن بحق حفدة الإنسان الأول دون محاولةٍ للتقدم.

اكتظت ذاكرة سمير بتلك الصور الشائهة وضم إليها غضبه من نفسه هو، وقفزت جيهان إلىٰ خواطره، جيهان اللغز تكمل مع زوجها حامد دائرة الغموض، قانونها في الحياة هو: "مليش دعوة"، وعند أي حوارٍ تختفي أو تلتزم السكون التام، لكن عينيها تقولان الكثير، والغموض المتبادل فيروس

العلاقات الشكلية الفاترة بين الناس.

***

قال حامد لجيهان بعد أن نامت ابنتهما مريم:

- مريم تقول: إننا لم نزر عمها منذ سنوات!

قالت جيهان وهي تطرح شعرها الذهبي الذي لا يصدأ إلىٰ الوراء:

- هل لديك وقت؟

- بناء العمارة يلتهم كل وقتي، وأنا لا أطيق نصائحه الكثيرة.

- لسنا صغارً لينصحنا.

رد حامد وهو يستلهم من إجاباتها رأيه وكأنها قرائن:

- سمير يتصور أننا نخفي عنه أشياء وأشياء.

- كل منا لديه ما يخفيه يا حامد.

أعجبته الإجابة فرد في شبه دعابة:

- إلا أنا وأنت.

- طبعًا.. طبعًا.

رن جرس الجوَّال الجديد الذي أهداه لها حامد مع أول عمل شبكة الجوال في مصر منذ نحو شهر. ردَّت جيهان علىٰ الهاتف الجوال بارتباك:

- أهلًا وسهلًا، أنا جيهان، مشغولة فعلًا، نتكلم بعد ساعة، مع السلامة.

سألها حامد وقد اصفرَّ وجهُه:

- من؟

- إنها زميلتي سوسن.

وفي محاولة لطمس معالم المشهد سارعت بالقول:

- تُرىٰ لو طلب منك سمير شقةً لابنه ياسر، ماذا تفعل؟

- ممكن طبعًا، وعندئذٍ قد أضطر إلىٰ تخفيض إيجارها له، أو عمل خصم من ثمن البيع، لا أحب أن أخسر كثيرًا يا جيهان.

تفرست فيه بعينيها الواسعتين، وقبلته قبلةً مصطنعة:

- حبيبي أنت.

لم ينم حامد طوال الليل، تقلب علىٰ أشواك الشك، وانتهز نوم جيهان العميق، ونقل من جوالها رقم المتصل أو المتصلة الأخيرة.

مع غيوم الصباح الممطر، رن هاتف المنزل، فهمَّت جيهان بالرد، وحامدٌ متربص بكل شاردةٍ وواردة..

"هل كانت جيهان تنتظر المكالمة فخاصمت النوم هي الأخرىٰ؟!"

سبقها حامد إلىٰ الهاتف، وتعمد أن يتمهل في النطق حتىٰ يسمع صوت الطرف الآخر أولًا، وكما توقع؛ إنه صوت رجل، لكن كيف تجاسر علىٰ نطق اسمه:

- حامد؟

- نعم.. أنا حامد.... من؟

محمود حبيبي.

تغيَّر اتجاه الرياح مائة وثمانون درجة، وصوت محمود يشي بنبأٍ سيئ قبل أن يفسر.

لقد مات الحاج عزمي، أبي الطيب.

قالت جيهان في مسحةٍ من أسىٰ:

- كان رجلًا طيبًا وحنونًا، وعبقري الكلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

* * *

لم تشهد بسيون منذ سنوات جنازةً حاشدة كجنازة الحاج عزمي، رأىٰ سمير وحامد مشهدًا مذهلًا، ففي زحام نقل الجثمان إلىٰ القبر، هرول شاب لا يعرفانه، ومضىٰ يقبل قدمي الحاج عزمي من فوق الكفن، ويبكي بكاءً مريرًا، عندئذٍ همس سمير لحامد:

- كان رجلًا محبوبًا عظيمًا، لم نوفِّه قدره وحقه.

وبكىٰ كما لم يبك أحدٌ من قبل.

كسر حامد القاعدة، ونطق من جلال ما يسمعه ويشاهده قال:

- أبٌ جديرٌ بأن نفخر به، رَحِمَهُ اللَّهُ.

لقد اهتز قلب القرية، قال ابن العم محمود:

- يبدو أن أولاده كثيرون، يحبونه أكثر مما نتخيل، رحمك الله يا حاج يا أمير.

* * *

بعد أيام، سحب سمير من البنك مبلغًا صغيرًا، هو كل ما لأبيه، وكان نصيب كل من سمير وحامد نحو ألفي جنيه، انتحىٰ سمير بأخيه جانبًا، وأخرج من جيبه نصيب حامد، وخطر ببال سمير أن هذا المبلغ الضئيل لا يحتاج إليه حامد الآن بطبيعة الحال، لكنه يفيد سمير في استكمال تكاليف زواج ياسر التي أجهدت سمير، وأجهزت علىٰ مدخراته.

قبض سمير علىٰ النقود في يده، وقال في كلماتٍ مركزةٍ، تفسرها نظراته إلىٰ وجه سمير الجامد، قال:

- هذا المبلغ الصغير، هو نصيبك فيما تبقىٰ من مال أبينا رحمه الله، وبصراحة سيكون مهمًا أن تتركه معي -كقرض- لعدة أشهر.

وشرع سمير في إعادة النقود إلىٰ جيبه واثقًا من الموافقة، وكانت الإجابة لونها أحمر، إذِ احمر وجه حامدٍ وصار قرمزيًّا تكاد تنفجر منه الدماء، وهو يسارع بمد يده المهتزة لتهبط علىٰ النقود قبل أن تدخل جيب سمير، قال حامد:

- لن أستطيع.

ونزل بينهما جدارٌ داكنٌ سميك. وخلال دقائق أخرىٰ

تسلمت نهلة نصيبها، وكذلك الحاجة صباح، وكان غريبًا حقًا ألا يتركوا هذه الجنيهات الفقيرة لها.

رفضت صباح أن تغادر بسيون، فهي تفضل نداوة الحياة في بيتها بين جيرانها وأقاربها، يؤنسها طيف الحاج عزمي، وذكرياته وبصماته في كل ركنٍ ومكان.

١٣

في السفينة التي اعتادت جيهان أن تلتقي فيها زميلها "سعيدًا"، يضيفان كل مرةٍ جديدًا جميلًا من الكلمات والضحكات وهمسات العيون، مع تنهد مياه النيل، كان النيل ثالثهما، وأصداء الموسيقىٰ الحالمة تلغي المسافات بين جيهان وسعيد، وتضعهما في إطارٍ حالم.

عرفت جيهان أن حامدًا طلب سعيدًا عدة مرات من أكثر من هاتف فلم يجد ردًّا، فتبادلا الصمت حتىٰ انتهت المكالمة دون أن يحرز حامد هدفًا، وقرر سعيد أن يغير رقم الهاتف، قال سعيد ملوِّنًا كلماته:

- من الطبيعي أن يغار علىٰ الجميلة جيهان.

- هو لم يقل ذلك، بل لا يقول غيره كذلك.

- ربما كان ردُّ فعلٍ لك.

- هو لا يتكلم أبدًا عن المشاعر، لم أسمع منه منذ سنوات كلمة أحبك.

- جمالك يُنطق الصخر يا جيجي، ما بالك بأرملٍ مثلي!

- ولا حتىٰ هو يدلل اسمي مثلك.

- كل خليةٍ فيك تستحق الدلال يا جيجي، وماذا يستمع هو منك كي لا نظلم الرجل؟

- لا أظن أنه ينتظر شيئًا بعد أن يأكل ويشرب وينام بعمق، فاللغة لا تعنيه، كأنه غريبٌ عنها.

- لكنَّ أخاه سميرًا مختلفٌ عنه، فمنذ لقائي الأول به أقنعني بقدراته كمحامٍ ماهر، والمحامي لعبته الكلام، ولإعجابي به صرنا أصدقاء، وكل القضايا التي أسندتها إليه نجحت من الجولة الأولىٰ.

قالت في حيرةٍ، وحسرةٍ، ورغبةٍ معًا:

- هو أيضًا يقدرك ويثني عليك، وعلىٰ لباقتك، أنت تعرف يا "سو" أنك الوحيد الذي يُنطق صمتي الطويل، لقد كرهت أن أتكلم إلا معك، لكنني أعشق أن أسمع وأسمع وأسمع وأجمل ما سمعته كان منك.

- كأنك فيلسوفة، جمالك يعلمني الكلام، وصوتك الحاني يستولي علىٰ قلبي يا جيجي.

شعرت بخدرٍ جميلٍ يسري في عروقها، قالت بلسان قلبها:

- وأنت كذلك صوتك يذكرني بأنني أنثىٰ، رغم ما بلغناه من عُمْرٍ مسروق.

- معك أنا الصبي المراهق بكل رعونته وشططه.

- .....

- ومعك أحتاج إلىٰ تعليقٍ ولو كلمةٍ واحدة.

- سو... قولك هو قولي وإن لم يبح لساني به، معك يا سو لا أكتفي، أريد المزيد من الكلام الحلو.

- حتىٰ لو تجاوزنا الخطوط الحمراء يا جيجي؟

- من سلَّم قلبه لا يكترث بالتفاصيل، ما أكثر الكلمات الخاصة التي أشتاق إليها، ولا أسمعها أبدًا.

- نحن نفكر بطريقةٍ واحدةٍ شابَّةٍ رغم عبور الزمان.

- هاها... معك أنا الصبية الصغيرة أو هكذا أتخيل.

- أحبك جيجي، لأنني أريد أن أحبك أنت لا سواك.

- وأنا أحبك لأنني عطشىٰ للحب، ووجدتك خيَّالي الجميل.

اخترقت عيناه شفتيها، وتجولت في ربوعها، قال:

- هل أكلمك بلغة لهفتي إليك؟

- ليس الآن، فكلماتك تُذيبني، ادخرها إلىٰ حوارنا علىٰ النت.

- حسنا.. ألا يشعر حامد بانصراف مشاعرك عنه هذه الشهور؟

- هو لا ينتبه لها أصلًا.

- أريدك كل يوم.

- أريدك كل ساعة.

وكأنهما في فيلمٍ عاطفيٍ قديم أبيض وأسود، غابت عيناها الواسعتان في كيان سعيد، ثم أغلقتهما بقوةٍ تحتضن ما حصلته العينان منه، وشاب وجهها ارتياحٌ بطعم النشوة، وغادرت حلاوة التخيل إلىٰ طلاوة الواقع في وقتٍ ورديٍّ هو الأجمل في حياة سعيد.

ثـمَّ تلاصـقت أصـابعهما تمارسـان لغـةً أخـرىٰ، كـل يـد تتقصىٰ الأخرىٰ وتستحلفها وتبثها المعنىٰ والمغنىٰ.

تعجـب سـعيد لثبـات ملامـح جيهـان عنـد ورود اسـم زوجهـا، بمـا يعنـي أن "حامـدًا" فقـد كـل منصَّـات المشـاعر تجاهه، وأن لفحات النـدم أو الـتردد تلاشـت، رغـم أنهـا تجيـد بصـمتها العـزف علـىٰ أوتـار القلـب، ومـن الغريـب أنهـا لـم تتحدث معه أبدًا عن مستقبلهما معًا (مستقبل سعيد وجيهان)، ومما أعجبه فيها كذلك أنها تسمح بتدفق أمواج الكلمات بجنونٍ مطلق، لكنها تغلق كل النوافذ وبإصرار أمام أي مناورة لأكثر من هذا الحب الشفيف.

بات طقسًا يوميًا هذا الحوار الفاتن الذي تتعاطاه جيهان إلىٰ حدِّ الإدمان، ولم يكن سعيد أقل شغفًا وإقبالًا منها.

في طريق الرجوع إلىٰ بيتها التقت جيهانُ سميرًا علىٰ مسافةٍ متساوية من مسكنيهما المتجاورين، واكتفيا بالإيماء في وقتٍ واحد، فنظر سمير –تلقائيًّا– إلىٰ ساعته، ارتبكت جيهان وسرعان ما ابتلعها ظلام مدخل العمارة.

استقبلت مريم أمها جيهان، وهي لا تفهم سببًا لتأخر أمها

شبه المستمر في الأسابيع الأخيرة، لكنها تستريح لعودة أمها وهي أكثر حيوية، وكأنها قادمة من حمام الساونا الذي لم تجربه مرةً واحدة، قالت مريم فرحةً بها ولها تداعبها:

- أمي الجميلة التي تزداد جمالًا كل يوم، تستحقين لقب نفرتيتي أو "الجميلة أتت"، ولو كنت تحبينني حقًا اصطحبيني معك إلىٰ هذا المكان الذي يُشع الجمال والحيوية، خذيني معك المرة القادمة، وسأحضر مبكرًا من الكلية.

افتعلت جيهان ضحكة توجست لها مريم، عيون جيهان الواسعة ضاقت ثم اتسعت كعيني نمرة، كأنها ترتب أمرًا وتخفي آخر، قالت بعد تفكيرٍ خاطف:

- متعة التسوق تجدد الحيوية، أحيانًا أكون وحدي، وأحيانًا أخرىٰ برفقة زميلاتي.

حدثت مريم نفسها " إنني لم أسألك يا أمي من يكون برفقتك، أما التسوق؛ فكل مرة تعودين لا يكون في يدك إلا أصابعك فقط، والحقيقة أنني الأولىٰ بهذه المشية لكي أنقص من وزني المنفلت".

استأنفت جيهان حديثها وهي تصفف شعرها الذهبي بيدها، قالت وهي تضغط علىٰ الكلمات فيما يشبه الرجاء:

- لا أحب أن أشغل أباك بمواعيد خروجي وعودتي حتىٰ يتفرغ لعمله بلا قلق، فلا تتبرعي بتقديم معلومات لا فائدة منها.

ردت مريم عسلية العينين والشعر وقد تلبسها مزيج من الدهشة والقلق:

- بالطبع يا أمي؛ فالأمر يخصك وحدك.

- ماذا كان في يومك؟

- لا جديد، دورة كل يوم.

- سنتعشَّىٰ معًا، لقد أخبرني أبوك بأنه سيتأخر الليلة.

- الحمد لله، بناء العمارة أوشك علىٰ الانتهاء، لنجلس معًا جميعًا وقتًا أطول.

- لا أظن يا مريم، فأوقات أبيك محجوزة للتلفاز، ولنا الصمت.

- أنت أيضًا تفضلين الصمت!

- لكنني أسعد بثرثرتك وثرثرة غيرك.

سكتت مريم، وكفت جيهان عن التفكير في أمور حامد، سرحت في مريم، لقد أصبحت عروسًا جميلةً حقًا، بلونها الخمري، وأنوثتها الفارهة، مستديرة الوجه كعمها، ضاحكة الأسنان، أنفها العريض ينم عن الطيبة، وشفتاها الرقيقتان ساحرتان، ووجنتاها مكتنزتان بالجمال، بها عيبٌ واحد، وهو أنها تعطس عند سماع الأخبار السعيدة، ما أجملك يا ابنتي العطَّاسة، من هو صاحب الحظ الذي سيصحبك إلىٰ دار السعادة؟

١٤

تشعر جيهان بالانعتاق وهي تتجول في شوارع القاهرة مع صديقتها سوسن أو بمفردها، وقد أصبحت سوسن مخزن أسرارها، وصمام الأمان، وهي معها كتابٌ مفتوح، ومن البديع حقًا أن لسان سوسن هو أنشط أعضائها، وفضولها جائع دائمًا، ولها شعبية واسعة لدىٰ زميلاتها بوزارة الثقافة، ومن أقوالهما المشتركة المأثورة:

"ما لنا نحن والثقافة، إنها عبءٌ ثقيلٌ علينا، لكنها وهبتنا فراغًا ممتعًا نفسد به الثقافة".

وهذا يومٌ استثنائي، عقدوا فيه اجتماعًا مطولًا انتهىٰ إلىٰ لا شيء، وعند عودة جيهان لم يلق حامد بالًا لحكاياتها عن سوسن وآخر أخبار المحلات وشوارع القاهرة، وكأنها تعمل ضمن فريق البلدية أو الحكم المحلي تخصص شوارع، وهي حريصة علىٰ هذه الأنشطة اليومية التافهة، لكن ما البديل الذي يسوقه إليها، إنه لا يملك أكثر من ملل الصمت، وأرصدة البنك التي تتراكم، وهذه الابتسامة العتيقة المجمدة.

في اليوم التالي أثناء تسكعها، اصطدمت قدمها بحفرةٍ

مفاجئة، فسقطت، لكنها نهضت بمساعدة شابٍ يشبه سعيدًا بشاربه وفتوته، تمزق جزءٌ من ثوبها الجديد، كان مزارًا لعيون زميلاتها وحسدهن.

"آه!! الأمر مختلف، إنني لم أسقط مرةً واحدةً أثناء إقامتنا في دبي، وهذا طبيعي، لقد كنت المرأة في قمقمها، حبست أقدامي وعواطفي، وحامد غارقٌ في صمته المبجل، والحق أنه كان يفتح شهيتي للحياة أوَّل كل شهر، وهو يقول لي بصوته وشفتيه: "أبشري، صار رصيدنا كذا".

نفضت يديها اللتين اتسختا، وحدقت بحرصٍ مكثفٍ في بلاطات الشارع القلقة أو المخلوعة، وهي تحاورها بقدميها كأنها لعبة مقررة علىٰ الجميع، وكان محرجًا ارتطام امرأة بدينة بالرصيف وحينها حيتها بابتسامة ماسخة ذكرتها بفيض ابتسامات حامد، وواصلت سيرها إلىٰ مكان عربتها.

رن الهاتف قالت: "دائمًا تطلبني في ظروفٍ غير مناسبة يا باشمهندس، كما كثرت مطاردتي بالهاتف، وتساؤلاتك هي نفسها، بدون تغيير أو إضافة: أينَ أنتِ؟ وماذا تفعلين؟ ومتىٰ تحضرين؟

أنا يا زوجي العزيز في الطريق إلىٰ سيارتي، كان عندنا اجتماعٌ آخر".

وأحيانًا تكون هذه الإجابات غير صحيحة، حين يكون الملك بصحبتها، تعني حبيبها سعيدًا، فأول أمس مثلًا كانا في إحدىٰ المنتزهات الخاصة، ردت علىٰ حامد:

- كنت مع سوسن.

وسوسن دائمًا مستعدة للإجابة:

- نعم؛ كانت معي الآن.

١٥

شـهدت دار المشـاة حفـل زفـاف أول أحفـاد الحاجـة صباح، خصصت المنضدة الرئيسية والأهم للحاجة صباح وأبنائها، وعند وصولها سرت همهماتٌ مرحة، وتحرك عدد من المدعوين لاستقبالها، كأن أحد كبار المسؤولين يزور القاعة، ولم ينقطع مهرجان الألحان الصاخبة كل الصخب، والأضواء الملونة المتراقصة. سألت الحاجة بحروف من حنانٍ وإعجاب:

- أين ياسر عريسنا الجميل؟

وتاهت عيناها في زحام الحاضرين، وصافحت عددًا كبيرًا ربما لا تعرفهم، والجميع يتداولون التهاني، وكان أول المستقبلين للحاجة سمير والد العريس، اصطحبها إلىٰ مكانها في صدر المائدة المميزة، وقبَّل الحاجة علىٰ يديها وأنفها ضاحكًا وسألها الدعاء لتحل البركات، وفي تلقائية ابتسم سمير، فتساءلت عن حامد، وحين علمت أنه لم يحضر قالت:

- لابد أنه لم يحضر بعد لظرفٍ طارئ، وربما تعطلت عربته رغم أنها عربة جديدة، عمومًا الغائب حجته معه،

إنَّ حامدًا لا يتأخر عن الواجب.

هز سمير رأسه مؤمِّنًا علىٰ ردها المتوقع، كل هذا ونهلة تميل مع كلماتها يمينًا وشمالًا، وتشارك كل شخص انفعالاته دون تمييز لتكون هي "حبيبة الكل".

ومن وراء نهلة زوجها الذي يُرضي جميع الأطراف خاصةً الأقوياء كما يصفونه، وولداهما لا يختلفان كثيرًا عنهما، فقد ارتديا ثيابًا اجتهدا أن يبرزا علامتها التجارية الشهيرة، إنهم جميعًا خبراء في الإعلان عن أنفسهم، وهم في مباراةٍ لا تنتهي مع ما يرتديه حامد وابنته وزوجته التي فاقت الجميع في التبرج والكشف عما تتصوره جميلًا.

فرحت الحاجة صباح لمرأىٰ حامد وكأنه عريس الليلة، وطلبته إلىٰ جوارها قائلةً:

- تعال هنا يا باشمهندس وهات العيال (تقصد جيهان ومريم).

فازداد حامد زهوًا علىٰ زهوٍ، وقفزت نظراته إلىٰ يدي أمِّه المثقلة بُحليٍّ شتىٰ من الذهب، ورست للحظات علىٰ ساعته الأوميجا ودبوس الكرافت الذهبي، ثم أصدر نحنحاتٍ

ناطقة أتبعها بابتسامةٍ واسعةٍ خاليةٍ من المعنىٰ، وصدَّر هذه البسمة الجافة لكل من صافحه أو حيَّاه عن بعد، وطرق سمعه حوارٌ جادٌ بين أخيه ومسئول القاعة حول استحضار أحد المطربين غير المعروفين إلىٰ جوار ما يعرضه الـ "دي جي" من ألحانٍ وأغانٍ مسجلة، وقرأ حامد علىٰ وجه سمير سيماء التردد والرغبة الحائرة، وشجعه أن المطرب المقترح سيرضيه أي مبلغ متواضع، ملأت حامدًا كلمة متواضع بحماس مفاجئ، فليساهم بأي شيء يُنسب له في المستقبل، رشق نفسه بينهما وسأل مدير القاعة:

- ما هي أتعاب هذا المطرب؟

ضحك الرجل لكلمة أتعاب وأجاب:

- نحو أربعمائة جنيه.

اطمأن قلب مهندس حامد، وهمس في أذن سمير:

- سأتولىٰ حسابه.

تعجب سمير وقال:

- شكرًا أخي، ينتهي الحفل وكل شيءٍ بعد ساعة، وكل

شيءٍ معمول حسابه، شكرًا علىٰ المبادرة.

لم يفهم حامد ما يعنيه بكلمة المبادرة، واستنام لعدم التفكير، ألحَّ حامد، وكان سمير أكثر رفضًا، فارتدَّ حامدٌ إلىٰ مجلسه.

ضجَّت القاعة بأغنياتٍ وأصواتٍ تكاد تمزق الأذن، وسأل حامد مريم عن أمها، فأشارت إلىٰ ركنٍ بعيدٍ فيه سيدة ورجلان لم يرهم من قبل، أضافت مريم:

- إنهم زملاء أمي في الشغل، وهم أيضًا أصدقاء عمي سمير.

كانت فراسة حامدٍ في مكانها حين افترض أن أحدهما هو صاحب مكالمة جيهان المبهمة. تعمَّد أن يعرف أيهما يحظىٰ بعنايةٍ أوفىٰ من جيهان، آه..، ربما هو هذا الأشقر صاحب الكرش، والشارب المعقوف.

بعد أن انضمت جيهان مرةً أخرىٰ إلىٰ فريق العائلة سألها حامد:

- من هؤلاء؟

قالت مدعيةً عدم الاكتراث:

- زملائي نبيل ونجاة وسعيد.

كاد أن يقول لها "ما أذكاك يا جيهان، سعيد الاسم الأخير للتمويه، والإيحاء بعدم الاهتمام به، ربما هو، أظنه هو". قالت له جيهان:

- لماذا لا تربي شاربك؟

ظهر المطرب وقلَّد غناء بعض الأغنيات المعروفة ونال استحسانًا يختلط بالإشفاق. زعق حامد في أذن أمه حتىٰ تسمع مع هذا الضجيج:

- محمود ابن عمي هزَّ يده بالتحية لك أكثر من مرة.

التفتت إليه وبادلته التحية، عندئذٍ مالت علىٰ أذن حامد قال:

- يريد أن يشتري أرضي يا باشمهندس ليبني مصنعًا عليها، وقدَّم لي أعلىٰ سعر، لقد عرض خمسمائة ألف جنيه.

- توكلي علىٰ الله، هذا السعر فرصة جيدة.

لوَّح محمود بيده مرةً أخرىٰ، ثمَّ انضم إلىٰ منضدة

الحاجة صباح، همس للمهندس حامد:

- أرجو أن تقنعها بالبيع يا باشمهندس.

- إن شاء الله، أحضر خلال أيام، ونتمم كل شيء، وسأخبرك برقم حسابها في البنك لإيداع الثمن.

أومأت الحاجة صباح برأسها إعلانًا للموافقة والرضا، غادر محمود المنضدة قفزًا ليلتحق بأسرته.

١٦

رفض حامد أن يشتري لأمه بيتً جديدًا، وحبَّذ الاحتفاظ بثمن الأرض في البنك، فوافقته، وكتبت له توكيلًا بنكيًّا، وبين ليلةٍ وضحاها، أصبح هو المتصرف الوحيد في أموالها.

ولم تتوقف شقوق جدران المنزل عن الاتساع، بل وحدثت انهيارات في أجزاءٍ منه حتىٰ باتت خطرًا علىٰ حياتها، ولم تقتنع صباح أبدًا بمغادرة بيتها إلىٰ الأبد، ففي كل مكانٍ ذكرىٰ لا تُنسىٰ.

وبرحيلها الاضطراري فقدت الزوج والبيت والقرية، شابتها مسحةٌ من الأسىٰ والقلق وهي ترتب ملابسها في دولابها الجديد في غرفتها الخاصة، رفعت يديها إلىٰ السماء تشكر ربها أن أعزها بالمهندس حامد صاحب العمارة الوشيكة، وبرصيدها في البنك، وأضاف لها الزمن هذا الوسام الجديد بما رأته وسمعته عن جنازة الحاج عزمي غير المسبوقة، وبكاء الغرباء، وتقبيل مجهولين لرأسه وقدميه، وهذه الكوكبة من المساكين الذين أكملوا الطريق إلىٰ القبر رغم الأمطار الثلجية، لقد أحبه الجميع لأنه أحب الناس دون

مقابل، وتمنت أن يكون أولادهما علىٰ الدرب نفسه، قالت لنفسها:

- أكيد المهندس حامد علىٰ الأقل، بعلمه، وماله، وتواضعه، وعمارته الكبرىٰ، يسير علىٰ هداه وخطاه، وإن كان كثير الاختلاف معه، لم يكن يفهمه علىٰ حقيقته، أنا فقط من يقرأ أغواره، أما سمير فهو لا يريح نفسه ويحمل مشعل الصراحة في مجتمعٍ لا يحب ذلك، المهم نحن الآن في هذه الشقة الجميلة، ثلاث نساءٍ من أجيالٍ ثلاثة، وأنا بحكمتي التي عُرفت بها سأشدُّ الجميع إلىٰ وثاق المحبة، نحن كلنا طيبات، أنا وجيهان ومريم، عائلتي الصغيرة الحديثة.

ابتسمت صباح وهي تلقي جسدها المتعب علىٰ فراشها بعد أن أغلقت جهاز التلفاز.

***

صارحت جيهان نفسها بأن وجود الحاجة صباح في الشقة قد يكون مصدر قلقٍ لها، فهمست لنفسها: "ليس من حقها أن تسألني عن غيابي عن الشقة، ولتنقل إلىٰ ابنها ما تريد، فالمسنات يثرثرن بلا وعي، وفي كل الحالات،

لـن يـنجح حامـد في حصـاري أو التضـييق علىٰ أنفاسـي التـي أطلقها سعيد، وحملني علىٰ جناحيْ حبه إلىٰ آفاقٍ ساحرة، فإن للحب طريقًا واحدًا بلا رجوع، من بدأه التصق به حدَّ التلاشي، وللحب لمحاته المجنونة أحيانًا، ولو أنني أدير أصابع القدر، لتمنيت لحامد أن يحب أخرىٰ وينشغل بها عنِّي، ولديه من المال ما يفتح به أربعة بيوت، هاهاها... لكنه إذا تغير وعرف نبض الحب وهمساته، حينئذٍ لن أتركه لغيري، سأسجنه في حبنا، وأسجن نفسي معه، وأنسىٰ كل الدنيا"

❋❋❋

كان وصول الجدة صباح إلىٰ بيت مريم حدثًا جميلًا حقا، فأخيرًا سيكون مع مريم من يبادلها حوارًا بحوار، وضحكةً بضحكة، ودعابةً بدعابة، وتتنعم بدعائها وبحنان لمسات يدها علىٰ رأس مريم وظهرها، تعجلت مريم الحوار ودفقات الحنان، فطرقت باب جدتها وأخبرتها أنها في انتظارها، ووعدتها بمفاجأة.

انشرح صدر الجدة لهذا الترحيب الحميم من حفيدتها الجميلة ذات الغمازتين اللتين أشبعتهما الجدة قرصًا وتقريظًا،

وهرعت مريم إلىٰ المطبخ لتجهز المفاجأة وهي فنجان القهوة التي تعشقها الجدة.

***

هلَّ حامدٌ مبكرًا احتفالًا بانتقال الحاجة إليهم، وبيده كيس كبير يمتلئ بملابسٍ فاخرةٍ للحاجة، فبينها وبين الملابس الجديدة وشائج، إنها إعلانٌ كبير متحركٌ عن ثراء صاحبها وذوقه العالي وكرمه، فلا أحد يعطي لغيره ما لم يعط لنفسه أولًا، والمثل الشعبي يقول: "لو كنت ناسي اسمك! مين راح يكون في البال".

وبمسرة طفلٍ بثياب العيد، استقبلت الحاجة الثياب برائحتها المميزة ونضارة ألوانها، وسكبت بهجة المشهد عطورها الخفية في كل مكانٍ. وأقبلت مريم، فقبلها أبوها في جبهتها، وتبرعت بكلمات الإعجاب قبل أن ترىٰ الثياب.

وجاءت جيهان الرشيقة بشعرها الذهبي الذي لا يصدأ أبدًا، حيته وحياها، كاد يضبط في عينيها ظلَّ رجلٍ آخر، لكنه تعب من المتابعة، حيث كان قبض الرياح حصاده في كل مرةٍ، فترك الأمر جانبًا مرددًا **"رب صدفة خيرٌ من ألف مرصاد"**،

وفي إشراقة الأماني البعيدة المتفائلة تمتم: "ربما كنت علىٰ خطأ، ولا مجال لخطيئة، ليته محض تهويل".

كالت الأم لحامد ما استطاعت من الثناء علىٰ ذوقه ورقته، فما لديها من ألبسةٍ كثيرة تحتاج إلىٰ عمرٍ آخر حسب قولها. قالت مريم بالنيابة عن الصامتين:

- عمران وثلاثة يا جدتي، وأنت في صحةٍ وسعادة.

أمسكت الحاجة بذراع حامد، ولقنته كلماتٍ جادةً ومحددة لا تقبل النقض:

- حامد يا حبيبي، هات مفكرة واكتب فيها كل ما تشتريه لي، واخصمه باستمرار من رصيدي في البنك.

حاول حامد أن يقنعها أن هذا واجبه، لكن بلا جدوىٰ، فأعدَّ كراسةً صغيرةً ليسجل فيها نفقات الحاجة صباح، وقد أُعجبت جيهان -في باطنها- بهذا الاقتراح.

سألت الحاجة صباح مريم في اهتمامٍ زائد:

- أين المفاجأة يا نور العين؟

قالت مريم في لهجة تمثيلية راقت للجدة:

- يا للهول لقد بردت المفاجأة، سأذهب لأصنع غيرها.

ضحكت الحاجة صباح، وكشفت عن بقايا أسنانٍ غير منتظمة زادتها جمالًا وطيبة:

- إنها القهوة؛ حبيبتي الأخرىٰ المفضلة.

سادهم المرح، وانسحبت مريم ثم جيهان، وبقيت الجدة في مواجهة حامد، الذي عبث بأصابعه ريثما يجد الكلام. فاجأته بسؤالٍ لم يتوقعه:

- ما هي آخر مرة تزاورتما أنت وسمير؟

- نحو عام، لكن بلا خصام.

- وأختك؟

- نحو عامٍ ونصف، لكننا علىٰ وفاق.

قالت الأم، وقد برزت تجاعيدُ وجهها السمح:

- عذاب

- أي عذابٍ يا أمي!!

- ألا تتزاوروا.

حكَّ حامد ذقنه بأصبعين مضطربًا، قال:

- رغم غياب الأسباب، الأمر معقد وغير مفهوم.
- لأنك لا تريد أن تفهم.
- من الأمور الصغيرة ما يتضخم إذا لم نمحه بالممحاة.
- سأكلم أخاك وأختك في الموضوع.
- قد لا يفيد الكلام يا أمي لاختفاء نقطة البداية.

١٧

زغرد هاتف جيهان، وكادت هي الأخرىٰ تزغرد، لابد أنه سعيد بكلماته المخملية التي تشم عطرها، وتتحمم بنسائمها "أهلًا حبيبي في كل حين"، يا الله إنه ليس صوت سعيد، رد الذي ليس هو بـ "سعيد":

- اليوم مفاجأة القرن يا جيهان، انتظريني علىٰ بساط الريح.

- ما كل هذا التجلِّي يا حامد!

أغلق الهاتف، حتىٰ تخيلت أنه علىٰ الباب، وتفاعلًا مع الرذاذ الوردي الذي نشرته حروف حامد، فتحت الباب، وعلامات استفهام راقصة تزين الجدران، موسيقىٰ حذائه صافحت أذنيها، قالت وهي تتأهب لانبهارٍ تسعىٰ إليه، ويدغدغ حواسها:

- يكاد قلبي يتوقف من المجهول.

- هاتِ قبلة هنا.

وأشار حامد إلىٰ خده، فقبلته علىٰ عجالة، قالت:

- هاها، لم تطلبها من قبلُ يا فتىٰ!

مد يده في جيبه، وأخرج مفتاحًا رماه إلىٰ أعلىٰ، التقطته جيهان قائلة:

- المرسيدس!

عقَّب حامد في نشوةٍ فوق احتماله:

- واللون الأسود الذي تحبه الملكة جيهان.

لأول مرة ينطق هذا اللقب المفاجئ. في الليلة ذاتها، كان أول من جلس إلىٰ جوار الملكة في أول جولة لها في الطريق إلىٰ مدينة السادس من أكتوبر، حبيب القلب الملك سعيد. عادت، نامت، والصمت ثالثهما.

كانت الحاجة صباح أكثرهم ابتهاجًا بالخبر، لا أحد الآن في مصر يمتلك عربةً أفضل من عربة ابنها، وفجأةً مدت بصرها إلىٰ حيث تتماهىٰ أحلامها.

١٨

من قوانين الحياة أن لا أحد يضحك طول الوقت، وأيضًا لا أحد يبكي دائمًا، إلا في حالةٍ واحدة، عندما تتوقف الحياة بينما القلب ينبض، لكن الأيام حين تتشابه فتصير يومًا واحدًا مضروبًا في أي رقم، تضيق قضبانها يومًا بعد يوم، لا تتأسىٰ بذكرىٰ تافهةٍ أو حلمٍ قليل القيمة.

من المبالغ فيه أن نوقن أننا قادرون علىٰ الحياة في أي وقت، أو قادرون علىٰ الانتحار وإنهاء الحياة عند السأم، فقد لا تستطيع هذا أو ذاك إن أردت أو تمنيت أو قررت.

تقول لنا الحياةُ ذلك، وإن لم نطلب منها أن تخبرنا، هذا ما قالته مراتٍ للثلاثي المتباعد علىٰ بساط الغباء المشترك: حامد، ونهلة، وسمير.

ارتطمت الرحمة بالأرض، كان مباغتًا سخيفًا مؤلمًا مخيفًا سقوط الأم الكبرىٰ صباح، كيف ينكسر النور، ويتقلص النهار؟!!

التقىٰ الثلاثيُّ وأتباعهم أمام غرفة العمليات التي دخلتها للتخلص من آلام كسر عظام الحوض بأثر الانزلاق.

عيونٌ عاجزة، ونظرات تتلاطم.

صرير عجلات نقالة الأم بعد انتهاء العملية تراود بادرات الأمل، الأم أفاقت وما أفاقت، إنها تتنفس وتتحرك جزئيًّا إذا انتبهت وهي تنتبه بشكل متقطع ثم تغيب، شيءٌ ما أصاب المخ بأثر التخدير، لا يمكن إجراء عملية في المخ لأن الخلايا قد تآكلت أو تلفت بأثر الشيخوخة، هذه الطيبة التي طالما منحت أنفاسها للحياة صارت وديعةً لدىٰ من يتحمس لمساعدتها دون أن تطلب أو ترجو لأنها تحت وطأة العجز عن التعبير.

النواح لا يتطلب حنجرةً أو حبالًا صوتية مدربة، فها هو يرتفع ويجلجل في صدر سمير ولا يسمعه منصت، وكذلك قلب نهلة المعتل، ودموع حامد.

الحالة تفرض نفسها بحدة، أجمع الأطباء علىٰ أنها لن تفيق إلا نادرًا وللحظات، ثم يخطفها الغياب عمَّا حولها. هو لونٌ من الغيبوبة، وإن هي أدركت ما يقال أحيانًا وتجاوبت معه تتكسر الكلمات حتىٰ تتلاشىٰ، وهذه الإفاقة الوامضة تشعل الأسىٰ وتجدده، لحظة فرح يتبعها وجعٌ طويل علىٰ مدىٰ اليوم نهارًا وليلًا.

يختفي الأمل، وتنشب الآلام أظافرها، وتحاصر الطيور السوداء حجرة الحاجة الطيبة صباح، ملائكة الرحمة لا تنقطع، تلتقط لحظة وعي لتداعب الحاجة صباح، وتظفر منها بابتسامة قصيرة أو اعترافٍ مبتسرٍ يثير ضحكات الحاضرين الباردة المخنوقة، وفي خطابٍ للمستحيل يتمنىٰ الحاضرون أن ينشط عقلها فجأةً، ويدحر توقعات الأطباء الكئيبة.

وحكىٰ سمير -كأنه يداعب الأمل ويغريه- عما سمعه عن الراحل الدكتور سعيد عبده، الطبيب والأديب الذي تُوفيَ عن نحو تسعين عامًا، ففي صغره مرض مرضًا انتهىٰ به إلىٰ الموت، وتم تغسيله ولفه في الكفن، وعند وضعه في التابوت رفع يده ليحيا تسعين عاما.

وحكىٰ عن زوجة صديقه المصابة بسرطان الدم، وبعد إقامةٍ طويلةٍ بالمستشفىٰ، قال كبير الأطباء وأشهرهم محدثًا زوجها وهو متجهم: "استعدوا من الآن، فستفارق الحياة الليلة أو غدًا".

اتصل صديقه بأبنائه لإعداد المقبرة، وهو متهالك من كل المشاعر السوداء، وطلب من سمير أن يُطل علىٰ امرأته

ويحدثها إن تحدثت لتحس بالقلوب من حولها في ساعاتها الأخيرة، وتمضي إلىٰ خالقها وعلىٰ شفتيها ابتسامة.

رحبت الزوجة بكلمات سمير القليلة، ونبتت ابتسامة برعمية علىٰ شفتيها المصفرَّتين، انتزع سمير من حزنه ابتسامة رمادية وقال كلماتٍ قابلتها المريضة بامتنان، وانصرف سمير منتظرًا خبر الوفاة، وكان مذهلًا أن تمتد مهلة اليوم الواحد للاستمرار في الحياة إلىٰ عشرة أعوامٍ استردت خلالها صحتها، وأعطت الحياة ما أعطت.

أشعل سمير شمعة الأمل، وإن تآمرت عليها العواصف، وتفرض صرامة المرحلة نفسها، فيسأل سمير حامدًا عمَّا تبقىٰ من أموالها، لتنسيق الإنفاق في مرحلةٍ قد تطول كما تكهن الأطباء، وتتطلب نزيفًا من الأموال للمتابعة، أكدت نهلة السؤال، وأضاف سمير كلماتٍ يعنيها:

- إذا نفدت ثروة أمنا الحبيبة، سنتقاسم تكاليفها سويًا حتىٰ لو بعنا ما نملك.

قالت نهلة مستغرقةً في لا شيء:

- طبعا... طبعًا.

وهزَّ حامد رأسه غير معترض. وطوال الوقت كتيبة من ملائكة الرحمة يتناوبون علىٰ متابعة حالة الحاجة صباح، من علاجات وتعليق محاليل، وحقن، وبعضهم أو بعضهن يستجدي دقائق الإفاقة، ويخاطبونها بكلمةٍ أو بنصف كلمة، حتىٰ صاروا عاطفيًّا جزءًا من الأسرة أو إضافةً لها، وبشكل تلقائي قبل بعضهم يدها في إحساسٍ دافئٍ بالبنوة، وهم يدعون لها بالشفاء.

لم يعد هناك معنىً لليل والنهار عند الحاجة صباح، والزائرين أيضًا، والمقيمين معظم الوقت. وبعد عدة أيام سلَّم حامد ورقةً صغيرةً تتضمن ملخصًا لتفاصيل مال الحاجة في البنك، كان رقمًا يقشعر له البدن، ويرتجف له العقل وينتفض القلب، رقمًا فاق كل التوقعات، إن رصيدها في البنك -حسب قائمة حامد- لا يكفي لإقامتها بالمستشفىٰ شهرًا واحدًا، والمتوقع أن الإقامة ستمتد شهورً، أو ربما أكثر من عام.

جدَّ الجِدُّ، ورعاية الحاجة أصبحت مهددة، فهل يضطرون إلىٰ نقلها إلىٰ مستشفىٰ متواضعة، ترعىٰ الموت أكثر مما ترعىٰ الحياة؟ عينا سمير تَخلَّق لهما قفازان من نار، وكأنما ارتدىٰ زي المحارب حفاظًا علىٰ الطيبة من الإهمال

والمهانة، شاركت نهلة سميرًا في غليانه، كيف ينفق شخصٌ واحدٌ في الأكل والشرب نحو نصف مليون جنيه في عامين فقط.

تأملا الحساب -كما ادعىٰ حامد- وإذ كتب فيما كتب أن الحاجة تنازلت عن معظم مالها له ولابنته جيهان، دون أوراقٍ أو إثبات.

***

عند المواجهات الحساسة والمهمة والمصيرية تتهدم أشياء، ويتكون عالمٌ جديد، وتتبدل خرائط المشاعر والعلاقات، وقد يكون التراجع إلىٰ نقطة البدء مستحيلًا، دقت رأس سمير هذه المعاني التي تشبه الحقائق، وكان لابد من اختيار حلٍ عاجلٍ لن تبادر به نهلة أبدًا إلا إذا اشتعلت الحرائق. وحامد لن يراجع نفسه، فهي غير قابلة للمراجعة إلا مع صدمةٍ عنيفة، وقد لا يتحمل حامد صهد الحقيقة، فتحترق حبائلُ الود ويذبل الورد، وتضطرب الثوابت.

ذابت نهلة في إعياء الحاجة صباح، وقلق عينيها، وجمود لسانها، وهي تصرخ من وقتٍ لآخر صراخًا مكتومًا من وخز

إبر الحقن، ولعلها تحاول أن تخفي صراخها حيث خطوط جبهتها تلتوي، وبياض وجهها يصبحُ قرمزيًا، والممرضة تفتش في غباءٍ صُراحٍ عن موضعٍ يصلح للحقن في يديها التي اكتظت بالبقع البنيَّة والزرقاء من أثر الحقن.

ارتعش سمير للمشهد، ما أقسىٰ أن تختلط إمارات الطيبة بالألم والعجز رابضٌ في آخر الطريق، وارتعش بدرجةٍ أكبر وهو يتخيل أنه في مستشفىٰ بائسةٍ تضاعف من جبروت الألم، وملائكتها بلا قلوب.

جمدت عينا سمير علىٰ وجه حامد، ونظراته المتلصصة، وأشار إلىٰ نهلة أن تقترب لتكون شاهدةً علىٰ حوارٍ لا يدري مداه، قالت:

- سأستمع فقط دون أن أشهد.

قال سمير:

- أمامك أمنا الطيبة، ومن المحتمل أن نحتاج لكل ثمن الأرض، وبالطبع هي حرة فيما تعطي، لكن أريد أن أسمعها تقول: "أعطيت فلانًا كذا وكذا" وهي أمامكما؛ اسألاها.

تمنىٰ سمير ألا يسألها أحد، فقد يجرحها السؤال، وربما

فسروا إجابتها بالخطأ، وربما خانتها الذاكرة الممزقة، أو تمرد لسانها فشردت الكلمات.

تزايدت دقات قلب سمير، وسكت حامد عدة دقائق، وقد تغير لونه، ووقف قليلًا لينجو من الغرق، نظر لأمه التي تخسر كل يومٍ معركتها مع التركيز والشفاء، وتظل ساعاتٍ كلوحةٍ جميلةٍ تكاد تنطق لكنها مسلوبة الإرادة، ذكَّرت حامدًا بالموناليزا التي أبدعها دافنشي، بينهما ملامحٌ مشتركة، أمَّا الألم فهو من نصيب الحاجة صباح وحدها.

همس حامد، وقد جلس إلىٰ جوار سمير:

- لن أستطيع أن أسألها، وهي لن تجيب، لن تقدر.

- وما الحل إذن؟

- سأسدد المبلغ الذي تحددونه علىٰ دفعات خلال شهرين.

- تودع الدفعات في حساب نهلة، وتتولىٰ هي الإنفاق، اخصم من الرصيد الأصلي ثمن طعامها في عامين، ولن يتعدىٰ ذلك عشر ثمن الأرض، ويعاد لحسابها كل ما تبرعت به لأسرتك.

كان الاتفاق صائبًا وعادلًا وفي وقته المناسب، لكنه تم رغم أنف حامد الذي كظم غضبه.

ودارت دوامة المستشفىٰ والأطباء، وعندما تقترب من الأطباء وتكون تحت أضراسهم، يكون هو الآمر الناهي في مملكةٍ أسوارها من الدماء والألم، ولم يعد غريبًا أن يتعامل الطبيب بمنطق التاجر، أو أدنىٰ من ذلك.

كان اكتشافًا منغصًا وكريهًا أن يتبين الطبيب الذي أجرىٰ العملية الجراحية أن هناك تلوثًا في الجرح، ويقرر الطبيب إجراء عمليةٍ ثانيةٍ عاجلة، وفكر سمير أن يطالب الطبيب بتعويضٍ مقابل خطئه وإهماله، وكانت المفاجأة المقرفة أن الطبيب الكبير طلب تسديد تكاليف العملية الثانية مرةً أخرىٰ وبنفس القيمة بدلًا من أن يعتذر ويعوضنا عما ألحقه بالمريض من الأذىٰ والخطر، وعبثًا ناقشه سمير، فتقاضىٰ مبلغًا مساويًا لما دفعه في العملية الأولىٰ، أي طبيبٍ هذا! فهو كَلِصٍّ محترفٍ تقاضىٰ خمسين ألف جنيه تصحبهم لعنات الثلاثي: سمير، نهلة، حامد.

***

ولأمرٍ غير معلوم توقف حامد عن دفع بقية المبلغ المتفق عليه لنهلة دون اعتذار، وطلبت المستشفىٰ مبلغًا كبيرًا آخر مقابل الإقامة والتمريض والدواء، ونهلة تؤثر السلامة ولا تطلب شيئًا وتكتفي بالفرجة.

تكلم سمير بالحسنىٰ، وأن المستشفىٰ لا بديل لها، وأن النقود نقود الحاجة صباح، وعلىٰ حامد أن يدبرها بأية طريقة وفي أسرع وقت، وإن باع بعض ما يملك من أصول، وبعد أن حوصر حامد قال لسمير ناقمًا عليه:

- أنت لا تحبني.

قال سمير، وكأنه سمع الكلمات من قبل:

- نعم؛ لكنني لا أكرهك، أنا فقط أشفق عليك، وأنت تعلم كم كنت أحبك.

- أنت لا تحب إلا نفسك، وتعاملني كأنني لص.

- من يستولي علىٰ مال أمه ولا يرده عند مرضها كيف نصفه؟

نهض حامد وقال لنهلة:

- غدًا يكون لديك دفعة جديدة.

وصفق الباب خلفه دون أن يراعي مشاعر وحالات المرضىٰ، اقتربت نهلة من سمير قائلةً في توجس:

- عساه يصدق، وإلا أوقعنا في مشكلة.

- عندي مبلغ مدخر سأسحبه إذا لم يحضر غدًا.

- ألم تلاحظ أنه لم يعد يحضر إلا قليلًا! وإذا حضر يمكث دقائق معدودات ثم يختفي؟

- حامد شخص واقعي، مادامت أمه لن تراه، فلماذا يضيع الوقت معها أو من أجلها، إنها لن تعرف أنه يهملها، وبالتالي لن تغضب منه، أظنه يفكر هكذا.

- والله لو كانت المريضة جارته، لوجب زيارتها أكثر من ذلك.

***

في صباح اليوم التالي، جاءت جيهان إلىٰ المستشفىٰ، أعطت نهلة مظروفًا به ما استطاع حامد تدبيره، وقرأت نهلة علىٰ وجه جيهان رغبتها في الانصراف سريعًا، رغم أنها تدعي

أنها تحب أن تجلس إلىٰ نهلة ويتسامران، وبعد دقائق همت بالانصراف، سألتها نهلة:

- أراك في عجلة علىٰ غير عادتك!

- مسافرون إلىٰ الإسكندرية، تغيير جو، وحامد ينتظرني أمام المستشفىٰ.

- رحلة سعيدة يا جيهان، لكن حامدًا وعدني بإحضار دواءٍ لم نجده في منطقتنا.

- ربما نسي، سأخبره بذلك، إلىٰ اللقاء جميعًا.

خرجت نهلة عن سلبيتها، قالت لسمير الذي شيع جيهان بنظراتٍ من عجبٍ حتىٰ غابت عن نظره:

- يبدو أن حامدًا عثر علىٰ أمٍ أخرىٰ يمنحها اهتمامه، لن نعتمد عليه من الآن، سنقتسم الأعباء والسهر.

- يبدو أن الإسكندرية سترحل من مكانها بعد هذا الموسم.

١٩

من يسكنون هامش حياتنا هم الأكثر جلبةً وإزعاجًا، وهم يتهربون من المعامع، لقد اختاروا الهامش، وهو أليق بهم، صار كل من الثلاثة هامشًا بالنسبة لغيره، لكل منهم صندوقه الأسود الذي يستعصي علىٰ الفتح، ولو في أحلك الظروف، كل منهم عنوانٌ كبير علىٰ صفحةٍ بيضاء تمامًا خالية من السطور " أنت قريب مني بقدر ما أعرف عنك" كلمةٌ كم كررها سمير في مناسباتٍ شتَّىٰ.

الأيام تزحف كحيةٍ ترفع رايات الألم علىٰ الحاجة صباح التي تهوي إلىٰ جبٍ مجهول، وتمر شهورٌ وهي علىٰ سريرها، لا يدري أحدٌ هل تحس بما حولها أم لا، فقد افتقدت كل القدرة علىٰ الحركة، يسندها آخرون لتجلس أو تنتقل لعدة أمتار بمعاونة بعض الأشداء من الممرضين، يشاركهم سمير رغم ما يعانيه من مشكلاتٍ في فقرات الظهر، وفي كل مرةٍ يتم تحريكها بأي صورةٍ حتىٰ في مكانها لكي لا تزداد مساحة قرح الفراش في جسدها الصابر، ومع كل حركة يطاردهم خطر الانزلاق والاصطدام بالأرض، وحدوث كسر جديد لا يمكن للحاجة أن تتحمله، وهي علىٰ مشارف الثمانين من العمر،

ولهـذا اعتـاد فريـق الملائكـة أن يشـاركهم سـمير في حمـل وتحريك الحاجة صباح، وأكثر من مرة كادت تنزلـق مـن علىٰ الفراش من بين أيديهم، فكان سمير يفترش الأرض ويتلقفها، ليفضل بينها وبين أرض الغرفة، غير مبالٍ بآلام ظهره هامسًا لنفسه: "لكن ألم الحاجة أشد وإن لم تفصح".

الهوينىٰ... الهوينىٰ يا قنافذ الجراح الدفينة، هذه الرقيقة الطيبـة تخطـت الصـبر العظـيم، ومـا كانـت لتحتمـل وجـع البدايات، وكل يوم يمر يزيد رصيدها من الآهات غير المعلنة، ويحك أيها الألـمً، إنها الحاجة الطيبة، سل عنها الجيران، والأقارب، وحتىٰ العقارب، أراهنك إن تأملت حالة الحاجة ستخجل، وتشد رحالك إلىٰ بعيد.

كاد سمير أن يسأل الطبيب: "مادامت هي محكومٌ عليها بالألم بلا شفاء، وبالغوص في رمال الغيبوبة، وشروق كل شمس يضيف إلىٰ ويل مكابداتها، وإلىٰ رصيد أحزانها البريئة، ومادام الدواء والمحاليل تحولت إلىٰ وسائل لإطالة عمر العذاب والوجع، بينما عمرها الحقيقي تعطل تماما منذ أصبحت هي والسرير كتلةً واحدة، أليس من الرحمة أن نمنع عنها هذا السيل من الدواء لترحل سريعًا، ونختصر تدفق

العذاب بعمقه وزمانه، إننا الآن أعداءٌ لها، لا فرق بيننا وبين أساطين التعذيب في أي مكان، إن مشرط الجراح يعدنا بالشفاء، لكننا في هذه الحالة نشتري الألم الذي يعدنا بالموت.

هل يوافق الطبيب علىٰ إلغاء كل الأدوية، والاقتصار علىٰ مخدرٍ ضد الآلام حتىٰ يقضي الله أمرًا؟ وهل إذا قرر الطبيب ذلك تسمح لي نفسي أن أضطلع بمسؤولية التنفيذ؟ وهل يقبل حامد ونهلة بذلك؟ ألا أكون بمثابة القاتل أو الأناني؟"

زحف نحو أمه، وعيناه غارقتان في الدموع، قال:

- هل توافقين؟ هل يريحك هذا؟

أغمضت عينيها أكثر، وأمعنت طويلًا فيما هي فيه.

"وأنت يا نهلة، في كل الحالات ستقولين: لا أدري، وأنت يا حامد، هو ليس حاضرًا ليجيب، وربما إذا سمع السؤال اعتذر عن الرد".

قبل سمير جبين أمه البارد، وغمره الأسف لما فكر فيه، شعر بأنه مبعثرٌ أكثر من أي وقتٍ مضىٰ، وحنَّ إلىٰ أن يمشي إلىٰ حد الإجهاد فلا يقوىٰ علىٰ التفكير.

سمحت له نهلة بالتسكع كما يهوىٰ، فالمهمة ثقيلة وممتدة، حتىٰ المصعد الكهربائي تحداه ولم يعمل، اضطر أن يتدحرج علىٰ درجات السلَّم الرخامية، وأوشك أن تزل قدمه وينزلق علىٰ إحدىٰ الدرجات المبتلة، وعند الطابق الأوسط سقطت عينه علىٰ شخصٍ يعرفه داخل إحدىٰ الغرف المفتوحة صدفةً، كان الشخص منفردًا علىٰ سريره، أوشك أن يتذكر اسمه، إنه حسن رفيقه في المدرسة الثانوية، نفس ابتسامته الطازجة، ووجهه المنبسط، حيَّاه عن بعد رافعًا يده إلىٰ أعلىٰ، اتسعت ابتسامته ورد عليه بيديه معًا وناداه، لابد أنه هو، صافحه بودٍّ وحاول القعود علىٰ سريره مناورًا الجرح، تبددت نصف هموم سمير وهو يترك نفسه في أحضان الذكريات البعيدة، وفي شغفٍ مزدوج فتحا صنابير الأيام الخوالي، وأثنىٰ سمير علىٰ زميله القديم لأنه كما قال لم ولن يتزوج، لكن صاحبه أردف بأنه يشعر بأشواك الوحدة تؤرقه في نومه وصحوه، حت إخوته وأخواته أصبحوا مجرد أرقامٍ في حياته، بدليل أن جاره هو الذي نقله إلىٰ المستشفىٰ وليس إخوته، واستعادا أسعد أوقات الماضي التي انقرضت الآن مثل المشي علىٰ جسر النهر، وحوارات الليالي الفاتنة عن

تجاربهم الصغيرة، وهم يتنسمون الشعور بالخلود والأمان مع بقية الأصدقاء، وتركه سمير يتناول دواءه وطعام العشاء.

سبح سمير في هواء الطريق إلىٰ حيث لا يدري، واختلط مطر الماضي بعواصف الحاضر، والوجوه تعبر به كأن كل واحد في فضاءٍ لا سواه، وتعجب لهذا التفاوت الحاد بين العابرين، لكل وجهٍ معنىٰ ومعاناة، وخلفه حكايات، بعضهم يذهب ويعود، والبعض الآخر يذوب ولا يعود أبدًا، ينتظرهم التراب في الفصل الأخير، وأطلق حواسه تعصف بما يقع تحت بصره، أو يُعصف بها، أحس سمير بالانتشاء بهذه المشية التفاعلية الملونة التي يحبها وتغسله من الداخل، وهو في حالة استسلام لأي فكرة، لا يعمل حسابًا لأحد، ولا يعبأ به أحد، سواء مشىٰ أو جرىٰ أو قعد أو أكل كوزًا من الذرة المشوي -كما يفعل الآن- أو جلس علىٰ الرصيف وقد خلع حذاءه، لا يبالي بثوابتٍ طويلة وكثيرة في حياة الإنسان، لا يدري من ثبتها وصنع منها المعيار، والمقياس، والميزان، فالثابت الوحيد في الحياة هو الموت.

التصق بصره بأعمدة الإنارة، وقد انطفأ بعضها أو برزت أحشاؤها، تداخل في بعضه النور والتهالك والخوف،

لا ينسجم مع هذه المرئيات أن يدندن أغنية العندليب: "**ضي القناديل، والشارع الطويل**" اختنقت الأغنيات في الشوارع، وترسبت أصداؤها البعيدة في النفوس.

ومن حياة الشوارع وروَّادها إلىٰ دلال القصور، دخل أحد الفنادق، وغناءٌ كالصراخ، يتجاوز باب القاعة، اقتحم القاعة بهدوء، حيَّاه البعض، وصافحه آخرون، وأسلمته الأيدي إلىٰ إحدىٰ الموائد حولها رجال ونساء ليسوا جميعًا من أسرةٍ واحدة، وخلال نصف ساعة فقط كان محور المائدة الرئيسي، حتىٰ ظن سمير لوهلة أنه بالفعل أحد المدعوين، نفض غربته وتلون بألوانهم، وقد غادر نفسه إلىٰ حين، إن تأملوا تأمل، وإن صفقوا كان أعلاهم تصفيقًا، وعند الضحك تتوهج ضحكاته، وحينما حان وقت افتتاح صالة الطعام للمدعوين، صافح رفاق المنضدة بودٍّ قديم، وتسرب خارج الفندق ليرىٰ الحياة بشقيها تستعصي علىٰ الفهم، ففي آخر الشارع من يتأهب للموت، وهنا من يفتح أبواب الحياة والبهجة.

"أيتها الحياة، مَهْلَكِ، باعدي بين جانبي الوجود، أيتها المعجزة، لماذا لا يكون موعدك العاجل مع الحاجة صباح!"

إلىٰ الشارع مرةً أخرىٰ وقد تناقصت أعداد المارة، حيث استجابوا لنداء النوم أو مقاعد المقاهي للمعارضين للنوم واليقظة معًا وما أكثرهم، تلبسه شعورٌ متشابك، لا رغبة في النوم ولا الحوار مع أي شخص بالمستشفىٰ، ولا الكلمات الروتينية السريعة التي يطلقها ملائكة الرحمة، ولا ملاحظات الأطباء المملة التي هدفها الأوحد تحصيل أتعاب أطباء يتسلون، أطباء لا يتعبون.

"نظرات أمي الخاطفة علىٰ مدىٰ شهورٍ تتطلب ترجمةً خاصةً أمينةً لا تتوفر لأحد، والملخَّص الكارثي أننا نتحرك في نفقٍ ينتهي بالضرورة إلىٰ قبر، يا الله؛ إنها أمي، أوصيتنا بها، فكيف نطلب رحمتك بنا فتُشفىٰ، ورحمتك بها فتفلت من قبضة الألم، فالألم محاكمة عاجلة للمريض ولمن يحيط به".

***

عاد سمير إلىٰ حجرة أمه، فوجئ بحامد الذي لم يزر أمه منذ تسعة أيام، فتحت نهلة حقيبتها، وأمسكت بالنقود التي أحضرها حامد، قالت ورأسها إلىٰ الأرض تحدث نفسها بصوتٍ مكلوم:

- أمنا لا تتحسن، ما الحل؟

نطق الذي لا ينطق أبدًا وهو يعبث بشاربه:

- لن تُشفىٰ أبدًا، إنها مسألة وقت.

وكأن حامدًا في مهمةٍ وانتهت، فرد قامته المقوَّسة إلىٰ الجنب قليلًا، وطبع قبلةً باهتةً علىٰ جبين الحاجة صباح، ثمَّ رمىٰ بكلمةٍ في فضاء الحجرة ليلتقطها من يرغب وقال:

- إلىٰ اللقاء.

أصوات الطبيعة من حولنا كأنها عرَّافة أو ندَّاهة، وأصوات الرياح واليمام والعصافير والقطط والكلاب وغيرها، تقول لنا الكثير ونحن في لهوٍ لاهٍ عنها، حوار خاص جدًا من طرفٍ واحدٍ لا نتوارث خبراته كما ينبغي.

جرىٰ وراءه كلب الحراسة، نباحه كلمات، والرياح هاربة من الشمس -رغم أننا في منتصف النهار- تحمل رائحة الثلج، وتخلت عن روائح الكائنات.

نظارته بإطارها الذهبي كلفته عدة آلاف من الجنيهات، وصارت مثار الإعجاب، ومن المحتمل مثار حسد البعض كما يتصور، وهي بالتأكيد تعلن أنه شخصية مهمة، وقلمه الخاص جدًا والثمين جدًا يلمع في جيبه هو ذهبيٌ أيضًا، أقصد مصنوعٌ من الذهب الخالص، يبدو أنه علىٰ موعدٍ جميلٍ مع كل ما هو ذهبي، بدءًا من شعر جيهان الذهبي، الذي ينافس الجمال ذاته، صعد حامدٌ بعض الدرجات في عمارته الجديدة، يتفقد إحدىٰ المشكلات في الطابق الأخير الذي أوشك علىٰ الاكتمال، وبخبرة مهندسٍ متمرسٍ تحرك حامدٌ في خفة، بفضل هذا "الكوتشي" المريح الأنيق جدًا الذي لا يستخدمه

إلا الصفوة، نقل قدميه بين بعض السقالات، وأغضبته بعض الأخطاء في التنفيذ، نادىٰ أحد العمال الدائمين ليصعد إليه:

- أنت يا بني آدم؛ أسرع.

ارتقىٰ العامل السلَّم وبعض السقالات حتىٰ دنا من حامد وهو يرتعش، لا يرتعش العامل من عضة البرد، وإنما من قلقه علىٰ زوجته المسكينة التي غادرت المستشفىٰ ولا تزال تئن، وكتب لها الطبيب دواءً مدمرًا لجيبه يلتهم أجرة عامٍ كامل، وعبثًا طلب من "حامد بيه" إعانة، فيبتسم له في كل مرةٍ ثم يعطيه فتاتًا مع كثيرٍ من الوعود الهوائية.

زعق حامد في غضبٍ ليقترب منه العامل أكثر، وتنقل حامدٌ من مكانٍ إلىٰ آخر يتبعه العامل بمسافةٍ قصيرة، زحف الكوتشي منزلقًا، وتأرجحت السقالة ثم انفصلت من رباطها، بينما حامد فقد توازنه وسقط صارخًا من الفزع والألم، وقد ألجم المشهد العاملَ الذي قبض بكفيه علىٰ رأسه، ولولا تشبث حامد بسقالةٍ أخرىٰ في منتصف المسافة إلىٰ الأرض لفقد حياته في التو، بقي حيًا لكن رجله وذراعه صارا جحيمًا من الوجع.

في مستشفىٰ مجاورٍ أجريت لحامدٍ عملية جراحية استمرت ثلاث ساعات، وأخبره الطبيب باحتمال إجراء عملية أخرىٰ في الساق بعد فترة، مرت الأيام ثقيلة، وكانت مريم إلىٰ جواره معظم الوقت تساعدها "سوسن" الخادمة، وضاعف من آلام حامد إهمال زوجته جيهان له، ألحَّ عليها أن تترك العمل أو تحصل علىٰ إجازة طويلة، راوغت بدعوىٰ أنها تقضي في العمل وقتًا ضئيلًا، وأنها علىٰ وشك الترقية، وأن العمل هو تسليتها الوحيدة، فسمح لها علىٰ مضض.

قالت جيهان وهي تسند ظهره ليصلي جالسًا:

- دعني أسيء الظن، من كان يعلم بأنك ستزور العمارة وتتفقدها في ذلك الوقت ففك السقالات، هل بينك وبين بعض العاملين شيءٌ من العداء؟

- كل الإجابات ممكنة، وستظهر الحقيقة إن عاجلًا أو آجلًا.

- هي عين حاسدة حاقدة يا حامد، قد تكون من أقرب الأقارب عندك أو عندي، حمانا الله من عيونهم.

- كيف حال ابنتنا مريم ومكالماتها الليلية؟

- تقول كان زميلًا لي وسيخطبني، هي تشكو من الفراغ بعد تخرجها، لكنها تطيل المكالمات

- جينات يا جيهان

تعاتبت عيونهما بلا طائلٍ، وتركته يصلي.

٢١

- إن ظنونه لا تزال تطاردني يا سعيد.

- مكانك في بيتي وليس معه.

- نعم حبيبي؛ من يدري؟ قد يحدث هذا ذات يوم.

تلامست الكلمات والأيدي والنظرات علىٰ مرأىٰ من وشوشات أمواج النيل، والموسيقىٰ الخفيفة الراقصة، قالت:

- هنا نستعيد الحياة.

- هنا أنا وأنتِ، والكون جوقة لنا.

- لو كنا معًا، ما أول شيءٍ نقوم به؟

- رحلة إلىٰ تونس أو فيينا، فتعلمي الغناء، فسأطلب منك أغنيةً كل يوم – كشهرزاد- وإلا قتلتك.

- هاهاها، أنا قتيلتك من الآن.

عكَّر صفو اللقاء رنات الهاتف الطويلة، إنه حامد، طلب منها أن تعود مسرعة لأنه وحده، والممرضات غافلات، استقبلها في غضب، نفَّث غضبه في إشاراتٍ وحروفٍ ساخرة:

- كل هذه الأناقة، جميلٌ أن يكون الإنسان في أزهىٰ ثياب، وجميل أن يستمع إلىٰ موسيقىٰ ناعمة.

طارت مشاعر جيهان إلىٰ موسيقىٰ سفينة النيل، تداركت:

- كنت محظوظة فعلًا، وأنا أكلمك كنت داخل محل أزياء تتردد فيه موسيقىٰ خافتة.

همس حامدٌ لنفسه: "لابد أن أصدق".

* * *

أسابيعُ ثلاث تعذبها حامد في المستشفىٰ، مرت وكأنها ثلاث سنوات، خرج علىٰ كرسيٍّ متحركٍ كأنه أنهىٰ مدة عقوبة في سجنٍ كل ما فيه أبيض، لكنه خانق.

سجنٌ آخر اشتكىٰ منه لزوجته وابنته:

- كيف سأقضي عامًا بأكمله وأنا حبيس هذا الكرسي!

قالت جيهان:

- نحمد الله لقد نجوت من احتمال البتر.

كأنها صفعته علىٰ وجهه!

- كيف طاوعك لسانك علىٰ نطق كلمة البتر!

- هو كلام الطبيب، كان احتمالًا مطروحًا، أردت أن أحكي معك لا أن أصدمك.

- كم مرة اتصل بي سمير أو نهلة.

- ولا مرة، لا أظنهما يعلمان أنك أجريت عملية.

- وهل هذا سلوكٌ طبيعي؟

- كل الأطراف مُدانة، الكل يتبادل التغافل.

- هم البادئون.

- لا أدري.

لا بد من المغادرة إلىٰ فضاءٍ آخر يمكن تحمله، قالت جيهان:

- ما رأيك؟ نستمع معًا شيئًا من الموسيقىٰ كي تهدأ، كان العرب قديمًا يعالجون المرضىٰ بالموسيقىٰ.

- أتسخرين منِّي؟ ومنذ متىٰ كان للموسيقىٰ مكانٌ في بيتنا!

- بـدلًا مـن أن أسـمعها وحـدي، نسـمعها معًـا لتكـون أجمل.

- ما أغرب الكلمات.

قرص ذقنه بأصبعيه، وبدَّد الموضوع الذي أرهقه، قال:

- وما حالُ أمي؟

- هي لا تدري، ونحن لا ندري.

- بل هي تدري، لكنها عاجزة عن التعبير معظم الوقت.

- النتيجة واحدة.

- ألـم تلاحظـي أن مـن زارني في المستشـفىٰ عـددٌ قليـلٌ جدًا؟!

- سؤال جوابه عندك، لاحظ أيضًـا أن أمك لا يزورها أحد تقريبًا.

- العيب فينا وليس فيها، فمن يزورها يجاملنا نحن.

- هل يمكن أن تقومي بزيارتها؟

- أنت لم تكن تزورها إلا نادرًا فلماذا تطلب مني؟

كما أنك لم تزر أخي في مرضه، وتركتني أزوره وحدي.

- كنت مشغولًا.

- وأنا أيضًا مشغولة الآن بك، وبعملي، ومريم أولىٰ بي.

هز رأسه وسكت.

٢٢

ألغىٰ سمير جميع مشاغله، وتفرَّغ تمامًا لخدمة الحاجة صباح، ومتابعة معاناتها التي لا تنقطع ساعةً من ليلٍ أو نهار، هي بين الموت واليقظة وبين الموت والحياة، قد تنطَّق بضعة أحرفٍ تشحن قلب سمير بمزيدٍ من الصبر.

سألته زوجته عايدة وهي علىٰ مقربةٍ منه:

- إلىٰ متىٰ؟

- في علم الله.

- وإلىٰ متىٰ تتراكم كل المتاعب علىٰ ظهرك وحدك؟

- تشاركني نهلة.

- وحامد باشا؟! ألم يكن حبيبها المقرب!

- ليس وقت الحساب يا عايدة، وعند الألم تتغير كل الثوابت، كما أن "حامدًا" يتذكر الآخرين في أمرين لا ثالث لهما: في حفل زفافٍ، أو تشييع ميت.

- لا أحب أن تندم في النهاية أيها الفدائي.

خفض صوته، ووضع يده علىٰ فم عايدة، فهو ليس علىٰ يقين من عدم سماع الحاجة لما يدور حولها، ولا أحد يجزمُ بحالتها، قال:

- الجرح طبقات، فلا تنبشي جراحي، كما أنك أكبر داعيةٍ للعزلة القاتلة.

- دائمًا تنتحل صفة الملاك، ألم تسأل نفسك لماذا ابتعد عنك أخوك وأختك، وأمك لم تكن في صفك؟

رفع رأسه إلىٰ أعلىٰ -كعادته- ينفض الغيظ، ويستوحي الرد، لم يجد ما يقوله دفاعًا أو استسلامًا، قدَّم لزوجته علبة دواء:

- أعطها هذا الدواء، ريثما أعود، سأبحث عن دواءٍ لا نعثر عليه بسهولة.

- وما جدوىٰ الدواء!!

***

لونٌ من الأسر في بئر الوجع، البقاء فترةً طويلة خلف أبواب المستشفىٰ، وأمام العين والقلب إنسانٌ علىٰ سرير،

وظيفته الوحيدة أن يتألم ولا يفكر، وقد احترقت أحلامه في صحراء الألم.

يكاد سمير يسمع صوتًا لانفراط عقد الأيام، مشكلته الأولىٰ أنه يسمع الحاجة صباح تزوم أحيانًا وتتأوه، والأطباء يستبدلون دواءً بآخر، وهم يعلمون أنهم يهرجون، والألم يتعاظم، يملأ النفس وحلًا وجمرًا، يتمنىٰ لها الموت الذي هرب منه طويلًا، طفرت من عينيه دموع، لكارثة الحياة ومحنة الموت الوشيك..

يا الله!! هذه الرقة، وتلك الطيبة، وحب الحياة والمباهاة بها، والدلال، والحذر، والهلع لارتفاع درجة حرارة الجسم إلىٰ أربعين درجة، إنه معلقٌ بجسدٍ جليلٍ يغتاله قطار الوقت، يدوس الجسد وصافرته الحادة لا تتوقف، كأنها مؤامرة بلا قلب ضد قلب الحاجة صباح الطيب، والنفس الرقيقة التي كم أسعدت وأضحكت وشيدت أبنية المحبة.

لا يزالون يفتشون في يدها عن مكانٍ يصلح لإدخال إبرة المحاليل، مع صرخاتٍ صغيرة متقطعة، ودوائر الدماء الزرقاء تدين هذه الوحشية، هل سمحت لهم الحاجة بوخزها الشرير

كل ساعةٍ بلا أمل! والقروح تنهش جسدها وتتسع وتتعمق يومًا بعد يوم، سمعتها تقول مرةً: **"أريد أن أموت"**.

تلك هي رغبتها التي أعلنتها ذات صحوة، لماذا لا نحترم إرادتها، لماذا نعاندها ونورطها ونحكم عليها بالألم بالإكراه؟

هي لا تطلب أن ننفذ فيها الانتحار بالنيابة، فالانتحار هروب من الحياة إلىٰ الموت، وأمي تطلب الانتقال من موتٍ إلىٰ موت، وهي الآن في إحدىٰ حالات الموت أو أدنىٰ.

٢٣

رن هاتف مريم، وطال رنينه الجريء، رمقت مريم هاتفها بارتياح، تلفتت يمنةً ويسرة، وتأكدت أن أباها في غرفته يقرأ أو يشاهد التلفاز، وفي خطوتين طويلتين قفزت إلىٰ الشرفة، وردت علىٰ الهاتف:

- نعم حبيبي.

- قادم إلىٰ مصر بعد أسبوع، وأبي وأمي يعرفان كل شيءٍ عنكم، عليك أن تشرحي الموضوع لأسرتك.

- إن أبي أعد لي شقتين كبيرتين نسكن فيهما، فلا تشغل بالك بموضوع الشقة.

ضحك مندهشًا:

- سلي والديك، هل يمكن نقل الشقتين إلىٰ سدني بأستراليا؟! يا مريومة؛ سنعيش عمرنا كله في استراليا.

كان حامد قد دفع كرسيَّه إلىٰ مكانٍ قريبٍ جدًا من الشرفة، وسمع الحوار كله، ونهشه الخوف علىٰ ابنته الطيبة التي تثق في كل الناس بلا تمييز، لماذا لا يكون هذا الحبيبُ

نصابًا يغريها ويخدعها؟ وربما هو يكلمها من العمارة المجاورة، وربما، وربما، وربما.

في خطواتٍ متقافزةٍ من البهجة طوقت رقبة أبيها بيديها، وقالت دون تردد:

- سأقف الآن علىٰ ناصية الاعتراف، وسأقرُّ وأعترف بكل شيءٍ بعد أن تعطيني الأمان.

ابتسم حامدٌ متوجسًا كما لم يبتسم منذ أسابيع، ومضت مريم تحكي حكايتها التي عمرها شهران، وأنها كلمت صديقها الجديد "تامر" علىٰ "كود" استراليا، وعرضت علىٰ أبيها تفاصيل أسرته، وقالت تطمئنه:

- كما يقال " الماء يكذب الغطَّاس"، وإحدىٰ زميلاتي شقيقها مهاجرٌ إلىٰ استراليا، وقد مدَّني وسيمدنا بما نطلب من معلومات، وقد أكد لي أن تامرًا يعمل صيدليًّا، فلا داعي للقلق، والعالم قريةٌ صغيرة، أنت في أول القرية وأنا في آخرها.

ضحكا، واكتشف حامد أنه لا يعرف ابنته جيدًا.

***

تلقَّت جيهان نبأ حب ابنتها مريم الجديد كأنه موسيقىٰ غامضة تمتعها وتحيرها، فكيف بهذه البساطة تحولت بوصلة قلبها ونبضه من حساب زميلها إلىٰ حساب هذا المهاجر البعيد!! وهي التي يتمناها الكثيرون، لأنها تملك شقتين، وذات يومٍ تؤول العمارة إليها، ناهيك عن مبلغٍ محترمٍ في البنك، ماذا لو تغير رأيها إذا رأته علىٰ الطبيعة؟ فعين الكاميرا ليست كعين الإنسان، أجابتها مريم:

- لقد عرض عليَّ نحو مائة صورةٍ له، كما أنني تفرست فيه علىٰ الواتساب والفايبر، إنه قابلٌ للتفاهم، وهو متحدثٌ لبق عاطفي، ويميل إلىٰ الفكاهة، أما أنا فقابلة للكسر، لهذا أخشىٰ التجارب المعقَّدة.

- وماذا عن زميلك؟

- بُمبة، فقلبه معروضٌ في مزادٍ دائم، وللأسف أنني كنت الرابعة في مسلسل الكذب.

- لا داعي لذكر كل ذلك لأبيك، فهو يتعامل مع الحياة كقطارٍ بلا فرامل، ولا يرحب برؤية القطار المقابل علىٰ القضبان نفسها، وإذا أغمض عينيه نام.

- هو بلا جدال لا يرحب بحكايات الهاتف الجوَّال.

- لسانك يستحق القطع يا حبيبة أمك.

❋ ❋ ❋

تركيبة فيها شيءٌ من التنافر والعزلة بين مكوناتها حين تجتمع هذه الأسرة الثلاثية الصغيرة، كل لسانٍ من طرازٍ مختلف، وكل عقل له مشارب ومآرب، ويكون الصمت هو الحل الجوهري في أحيانٍ كثيرة، وكلما رحل الزمان كبرت المسافة بينهم، وتفتحت الشقوق.

طلب حامد من جيهان كوبًا من السحلب الساخن، واقتربت مريم من كرسيِّه المعدني لتقول شيئًا أو تسمع أشياء، فما قالت ولا سمعت.

أمسك حامد بالكوب الساخن بلا كلمة ثناء لا تتوقعها ولا تنتظرها، لسعته الرشفة الأولىٰ قالت:

- في العجلة الندامة.

- المتعجل والمتمهل يصلان إلىٰ نفس النقطة في النهاية.

- أصبحت فيلسوفًا يا حامد!

انتهكت هدوءه ورزانته التي يختبئ فيها، ارتعشت يده فهمس "لا فائدة" واصطدم الكوب بمسند الكرسي، وتهشم علىٰ الأرض، قالت جيهان:

- الحمد لله؛ سقطت بعيدًا، أخذت الشر وراحت.

- الشر لا يختفي بكوبٍ من السحلب.

قالت مريم جذلىٰ لتطرد غيوم الجهامة:

- سأصنع لك غيرها بيدي لندلقها ليذهب الشر مرتين.

اتسعت شفاه الجميع وإن غاب الغرض، قال حامد متأملًا شظايا الزجاج:

- يا ربي! الكوب الذي يدفئنا ويسقينا في لحظة يكاد أن يجرحنا بشظاياه ويدمينا.

ردت جيهان باقتضاب:

- لكل شيءٍ وجهان.

- نعم، بدءًا من الإنسان.

***

مريم تقود المركبة وتوجهها كيفما تحب، وكأنما وظيفة حامد وجيهان الوحيدة هي الموافقة والمباركة، وكلما اعترضا علىٰ شيءٍ ردَّت بثقةٍ ويقين:

- إذا لم يعجبني الحال عدت في الحال.

كأننا في حضرة مجلس نوَّابٍ عربي، موافقة، موافقة.

حتىٰ صخرة حفل الزفاف مع ظروف الحاجة صباح الشاقَّة، تم تفتيتها إلىٰ شهر عسلٍ بهيج في جزر المالديف.

ثلاثة أسابيع فقط، عبرت كفراشاتٍ من القمر، لتركب مريم وتامر أجنحة الهواء باتجاه الجزر الجميلة. إثر عودة جيهان من توصيلهما إلىٰ المطار، قالت لأسير الكرسي المعدني المتحرك، كأنها راجعة من حفل السكارىٰ:

- لم تسأل عن تامر بما يكفي.

- سألت صديقًا يعرفه جيدًا، وأنا أثق فيه تمامًا.

- لكنك لم تخبرني برأي صديقك من قبل.

- لأنك لم تسأليني.

- لا أعتقد أن السؤال يفيد.

- كيف؟

- إذا مدحه أحد ربما كان يحبه فيجامله، وإذا رآه آخرُ شيطانًا، فربما يكون هو الشيطان، ولا يحب له الخير.

- حوارنا أيضًا لا يفيد، فهما الآن في قبضة الهواء، دائمًا تأتي أسئلتك متأخرة يا جيهان.

- لأنني لا أجدك حتىٰ وأنت معي.

- أحتاج إلىٰ كوب سحلب ثالث لأهشمه بإرادتي هذه المرة. أين الخادمة لتساعدني في الانتقال إلىٰ سريري.

- ألا أستطيع عمل ذلك؟

نبش حامدٌ ذقنه قائلًا"

- تفرغي للأسئلة.

- ما جدوىٰ السؤال بلا إجابة؟

٢٤

المسافات بين القلوب لا علاقة لها بمسافات السماء، استبد هذا المعنىٰ بخاطر سمير، وهو يتأمل المسافة بين العمارة التي يسكنها والعمارة التي يسكنها حامد، والتي لا تتعدىٰ مترين أو ثلاثة، وكخيطٍ من ضياءٍ في غيومٍ كثيفة، جاء صوت حامد يلخص لنهلة ما حدث له ولأسرته خلال شهرين، ويسألها عن الحاجة صباح وكأنه يقول لها: "متىٰ تموت فتُريح وتستريح"، قالت نهىٰ:

- ها هي أمامي، كما هي أو أسوأ، كان الله في عونها، إنها تتحمل ما لا تقدر عليه الجبال.

- هل مطلوب مني أي شيء؟

- حضر سمير الآن، يمكنك أن تسأله.

لخصت نهلة لسمير أهم ما أصاب حامد أثناء انقطاعه، رد سمير علىٰ حامد في كلماتٍ برقية:

- مبارك لمريم، وأتم الله شفاءك، العائلة كلها مصابة حتىٰ نهلة تعاني من مشكلاتٍ حادة في القلب، لكنها تقتسم معي المعاناة اليومية، أما أنت! فماذا تستطيع أن تفعل وأنت

علىٰ الكرسي المتحرك!! بينما لم تقم بواجبك وقدماك سليمتان!!

أغلق حامد الهاتف، وبصق علىٰ الأرض ساخطًا، رفع صوته لتسمعه جيهان:

- وغد، وسيظل وغدًا.

- هو الحقد يا حبيبي.

- أعاني من إجهادٍ شديد، سأنام قليلًا.

- لك ما تحب، قد أزور سوسن صديقتي إلىٰ أن تصحو.

- لك ما تحبين.

تفتح وجهها كزهرةٍ فارقها الخجل، هرب منه النوم قبل أن يبدأ.

همس لنفسه "ليست سوسن يا جيهان، انتشاء وجهك يدينك".

* * *

الفراغ يحاور شكوك حامد ويغذيها ويشهر أشواكها،

طلب من الخادمة هند فنجان قهوة كبير، وأمرها أن تخبره بعودة جيهان في التو واللحظة.

لأول مرة يلتفت إلىٰ ضجيج الشارع، وصراخ بعض المارة، وتشاجر أبواق السيارات معًا، وهوهوة الكلاب الضالة، وفي داخله ما هو أصخب من كل تلك الأصوات النافرة.

نقرت هند بابه، فخرج من حجرته مرحبًا بجيهان بصوت ماكر، وككل مرة تركت حقيبتها علىٰ أحد الكراسي، ودخلت حجرتها تبدل ثيابها، أمسك حامد بالحقيبة، فتحها، التقط ما فيها من أوراق، أعاد الحقيبة إلىٰ مكانها، عثر علىٰ أكثر مما ظن في تلك الأوراق، بيان بحساب طلبات لشخصين، وورقة أخرىٰ صغيرة بخطين مختلفين كُتب فيها كلمات عشق، كأنها كلمات متقاطعة عن الحب، وقلب صغير من الذهب لم يره من قبل، أخفىٰ تلك الأشياء، وأخفىٰ مشاعره التي تغلي، اقتحمت حجرته جيهان، والتوتر يجهز عليها، قالت:

- يبدو أنني سُرقت سأعود بعد قليل.

سألت جيهان عامل الكازينو عن أوراقٍ سقطت منها،

أكد لها أن مكانهما لم يجلس فيه أحد، سارت وعيناها تكنسان الأرض، قالت لحامد في شيءٍ من الرعب:

- لم أعثر علىٰ شيء.

- هل سألت سوسن عنها؟

- نعم... نعم.

- أعطني سوسن.

- هي تنام في هذا الوقت.

- أعطني رقمها لأطمئن عليك إذا طال غيابك.

أملت عليه الرقم وهي ترتعش، وتركته وهي تغوص في القلق، علىٰ الفور اتصل حامد بسوسن، حكىٰ لها أن جيهان خرجت منذ دقائق لتزورها، وتمضي معها الليلة، ونسيت هاتفها، وهو يريدها في أمرٍ مهم، قالت سوسن متوجسة:

- أنا أنتظرها خاصةً أنني لم أذهب إلىٰ العمل، ولم أرها حتىٰ الآن.

استدعىٰ جيهان سألها:

- أين كنت الآن لأفكر معك؟

- كنت مع سوسن.

أخرج حامد الأوراق والقلب الذهبي وقال:

- سوسن أرسلت إليك هذه الأشياء.

لم تستطع أن تبلع ريقها، ضربت رأسها بيدها، وانسحبت من الغرفة، ناداها:

- جيهان

توقفت وظهرها له، قال ضاغطًا علىٰ كل حرف:

- أنت طالق.

٢٥

كيف يكون اليوم جميلًا، هل حين تحيينا الشمس؟ أم حين تداعبنا أنسام الأرض الخضراء؟ أم حين نرىٰ بسمة طفلٍ يلعب؟ أم لا هذا ولا ذاك؟ اليوم جميلٌ بالفرحة ترقص في القلب، حيث يغني الحب، وحيث تحط فراشات الأمل علىٰ الدرب، اليوم جميل بالإنسان إذا حقق ذاته.

فرحة جيهان كفرحة إنسانٍ محبوسٍ في قصرٍ ينطلق إلىٰ واحات الحرية، تحلم أن تبني عُشًّا بنسيجٍ من حب، أن تنطق أن تسمع كلماتٍ من نور، فترىٰ الدنيا أجمل، وترىٰ الناقص أكمل، لا نغرق في آبار الدولارات، ونظن بأن العزة أن نبني قصرًا، أو نملك أغلىٰ السيارات.

جيهان لا تدري، هل تبكي، أم تسرف في الضحكات!! لكن ما أغرب حالك، عينٌ تنظر للماضي في حيرة، والأخرىٰ تفرح بسعيد، هذا المحبوب السُّكَّر، يتنفس كالعنبر، يتحدث كالموسيقىٰ، قالت والنيل علىٰ حبهما يشهد:

- سأكون أخيرًا لك، أشعر أني كنت كعصفورٍ في حوزة ملكٍ أخرس، أعرف أني لا أتحمل أن أبعد عنك، فأتيت إليك،

أسمع منك ولا اخشىٰ جريان الوقت.

- حقًا سيدتي وحبيبة قلبي؟! أنتظرك في كل الأوقات.

- ما بين يديك أنا، فلتأمر إن شئت تطاع.

- الأمر لعينيك الساحرتين.

- بل أمنية، أن نتعجل حتىٰ يجمعنا بيتٌ واحد.

- سأجهز بيتًا ملكيًّا من أجلك.

- من أجلك أقبل كوخًا يورق فيه الموال.

- سيكون شهود زفافك هذا النهر وتلك الموسيقىٰ.

- اسند رأسي فوق ذراعك. نقرأ كل مساءٍ أجمل ميراثٍ، أوراقك كلماتك لي، لم أنس خطابًا، لو تعلم، جمعت خطاباتك قبل ثيابي. فكلامك يسترني، يحييني، ويعوض ما كان، وما كان كثيرٌ ومرير.

- لا أدري لم أنتِ

- وأنا أيضا لا أدري لم أنتَ

- الأجمل ألا ندري، ألا نعرف سببًا، ماذا عن مريم؟

- قلت لحامد، لا يحكي عنا شيئًا، إن سألت عنَّا، مريم مثلي؛ اختارت دار الحب.

- وفقها الله

- وماذا عن أولادك؟

كأنما كان سعيد ينتظر السؤال ليحكي قصة كل ابن من أبنائه الثلاثة، ورثوا عادات الأجداد، هم لا يقتنعون بزواج الأرمل امرأةً كانت أم رجلًا، سكت سعيد، وجيهان سكتت، راحت تطرح أفكارًا من جيهان إلىٰ جيهان "هل حقًا لن يقبل أولاده أن يتزوج والدهم! أم هو لا يبغي غير الحب؟ يتهربُ من قيد الزوجية، حقًا!! ماذا لو فشل زواجنا؟ ستكون خسارتنا أعظم، نخسر كل مشاعرنا، ونقبع بين الجدران، كعناكب لا تنسج عشًا".

قال سعيد:

- سألني الأولاد، لو أن الأرملة هي الأم، هل يرضىٰ الأبناء أن تتزوج وتحب؟

- كيف أجبت؟

- لم ينتظروني، ومضوا وكأن الرفض بديهي.

قالت جيهان تفكر في صوتٍ عال:

- لو أني أملك بيتًا أو شقة، أو أنت لديك الشقة.

سكت سعيد، كاد يقول:

"ماذا لو عشنا في دائرة الحب فحسب والنيل علينا يشهد؟!".

أيضًا كاد يقول لها:

"أقسم أني لم أكُ ألهو، قلبي يطلب حبك ينبض لك، أما عقلي! قد يفتح بابًا آخر، بعد شهورٍ أو عدة أعوام قد يجرفك الملل إلىٰ حبٍ آخر، معذرةً عقلي لا يوقفه جدٌ أو هزل".

قال سعيد في صوتٍ مسموع:

- لنؤجل هذا الموضوع لبعض الوقت، ونصون مشاعرنا الحلوة بلقاء الموسيقىٰ والنيل العاشق للعشاق.

ونبش السجاد تحت أقدامهما قطٌ أبيض ضخم تجاوز عمر الشباب، ألقيا له قطعة جاتوه لم تعجبه، فنظر إليهما شذرًا وانسحب في ثقة.

قالت جيهان ضاحكة بأسىٰ:

- قطٌ يبحث عن قطة، كي يبني عشًا.

- .....

- الحب بغير جدار، كالأسرار المبعثرة في الحارات، يلوكها الكبار والصغار.

دفع فاتورة الحساب وانصرفا، كلٌ في طريق.

٢٦

لم يندم حامد علىٰ قراره السريع بالطلاق، لكن شعوره بالوحدة يتفاقم، لولا مكالمات مريم التي تؤنسه، وبعض الأفلام الفكاهية (أبيض وأسود) ونوادر وطرائف هند في سلوكها وكلامها الذي يخاصم العصر، لكنها استطاعت أن تصبح طباخةً ماهرة.

أرجأ حامد الانتقال إلىٰ شقته في العمارة الجديدة حتىٰ يشفىٰ تمامًا، وينتقي لها أثاثًا فخمًا يليق به، ورغم أنه لا يهوىٰ تقليب الذكريات، ومراجعة الماضي إلا أن ما فعلته جيهان سطا علىٰ رأسه، وطفا علىٰ السطح مراتٍ ومرات "لماذا؟ وإلىٰ أي مدىٰ بلغ تلوثها مع هذا الحبيب؟ وكيف لامرأةٍ في هذا السن أشرفت علىٰ الخمسين من العمر، تمارس هذه المراهقة العاطفية وربما الجنسية؟ وكما يقولون، لقد أوقدت لها عمري شموعًا لأوفر لها الرخاء والتميز بين زميلاتها وقريباتها، وصارت محط إعجاب الجميع، فهل كانت هي البداية؟! إعجابٌ فنظرة فلقاءٌ، وصار لقاؤهما في الكازينو أهم من الواجبات الأسرية؟ وهل عشاقها واحدٌ أم أكثر؟ من يتخلَّ عن ضميره مرة ينسه بعد ذلك، ومن يعتد علىٰ الخيانة تهن

عليه، وهل كانت في دبي أيضًا بهذا المستوىٰ من العفة والضمير المهلهل؟ عجبًا!! هل عشت مغفلًا أكثر من ربع قرن؟"

أمر هندًا أن تفتش في كل ركن وجميع الأدراج مرةً أخرىٰ فلم تعثر علىٰ شيء، وأصابه تشوش في التفكير، وقرر أن يفكر بشكلٍ علمي "لقد بدأت جيهان تسرف في وضع المساحيق علىٰ وجهها وتجديد تسريحات الشعر منذ بضعة أشهرٍ فقط، وكذلك فترات الغياب خارج الشقة تمددت في الفترة الأخيرة، فهل هذا يعني أنها علاقة حديثة، وهل اقتصرت علىٰ الجلسات السريعة في الكازينو؟ ليس الفارق كبيرًا بين صور العشق، فالطامة الكبرىٰ أن تخدعني بمشاعرها المزيفة، وتكون علىٰ ولاءٍ لغيري تدين له وتخضع، والغريب حقًا أنها لم تدافع عن نفسها بكلمة، لم تبد تفسيرًا أو ندمًا أو اعتذارًا... وكأنها بكماء".

"هل صدمتها المفاجأة؟ وهل تخيلت أنني ظلمتها؟ لا أرجح ذلك، لكن أليس من حقها أن أنصت إلىٰ دفاعها بعد تلك العشرة الطويلة؟ هي التي لم تسع إلىٰ ذلك حتىٰ الآن، كأن الانفصال هو غايتها فبادرت بالفرار، وسؤال آخر مهم:

لماذا تكرهني إلىٰ هذا الحد -إن كانت تكرهني- وأنا من كنت أحبها؟ نعم تكرهني، إنها لم تكلف نفسها وتجري مكالمة هاتفية، أو حتىٰ ترسل وسيطًا أو وسيطةً لتدارك الموقف.

هل أنا لا أزال أحبها؟ ولماذا لم أفكر مجرد تفكير في الارتباط بزوجةٍ ثانية؟ آه... كما أنه لا توجد جريمة كاملة، لا توجد إجابة كاملة".

***

رجعت جيهان إلىٰ منزل أبيها تجر رجليها المترددتين، وتفكر بصعوبة، لم تكن تتصور أن حامدًا سيطردها من حياته بهذه البساطة، ويغامر بأن يعيش وحيدًا، ولم يحاول أن يلومها أو يعاتبها، ويمنحها فرصة الاعتذار أو التوبة، نعم هو رجل بلا حوار، ومن الطبيعي أن يكون مختلفًا عن طموحها العاطفي، وهي أيضًا كانت قصيرة النفس، لماذا لم تجاهد صمته، وانكفاءه علىٰ نفسه لتردم الفجوة العميقة بينهما؟ وهل كان ذلك ممكنًا؟ أم أن تلك النفوس صيغت وتجمدت وتقولبت مبكرًا؟ لكل شخصية معيارها الخاص جدًا،

ولا سيادة لمعيار علىٰ آخر، إنها تتخيل له خطة النجاة من طباعه السقيمة، بينما لم تبذل جهدًا ولو ضئيلًا لتقترب منه، وتقاوم نزقها وليونة قلبها مع الآخرين، وهل هي سيئة لهذا الحد؟ وإذا كانت كذلك أليس من حقه أن تعتذر له وتطلب الصفح؟ لكن هل هي تحبه فعلًا؟ أم أنه سؤال لا يستحق الإجابة؟ وقليلًا جدًا ما نادته بلقب "حبيبي"، وهو أيضا لم يجرب سحر كلمة "حبيبتي"، لكن لماذا كان تأثير الكلمة طاغيًا إذا نطقها سعيد؟ فهل السبب تأثير الفراغ والغياب الطويل؟ وإذا كان الحب بينها وبين حامد أكذوبةً أو وهمًا بددته الأيام، ولم يستطع المال أن ينفخ فيه الروح، فلماذا تفكر الآن في ثقب تعود منه إلىٰ حامد؟ وهل الاعتياد أو العشرة بديلٌ كافٍ عن الحب؟

في ضحكةٍ بطعم الحسرات تبينت أن كل الجسور بينهما انهارت أو توشك أن تباد، صفعتها فكرة ساخنة، إذا كان سعيد استجاب لفكرة الزواج هل كانت تفكر كما تفكر الآن؟ أو تحن لأيام حامد؟ هربت من السؤال وما أكثر الأسئلة التي نهرب منها حين تكون إجاباتها مؤلمة، فما جدوىٰ أن تشاهد بحرًا من ماء، وجواهر بالقرب منك، لكنك لا تملك زورقًا،

أو حتىٰ مهارة السباحة! ماهي المحصلة الآن؟

المزيد من علامات الاستفهام، وأحيانًا التعجب لحالها وحاله معًا، حين يفقد العقل جسوره يطلب من الجنون حلًا، وهي تعرف أنها مؤهلة للحظةٍ مجنونةٍ طلبًا للسلامة، ألم تحب صامتًا؟ وتعشق ثرثارًا جبانًا مخادعًا؟ هل سعيد مخادعٌ فعلًا إلىٰ حد الخيانة حيث خان أحلامها وآمالها؟ أم أنه يفتقد الجرأة لخوض تجربةٍ كاملةٍ جديدة؟ وحامد خائنٌ كذلك، فلم يقم بدوره نحوي، بل ونحو أمه أيضًا، تلك التي أحبته كثيرًا، ما أغرب كلامه عنها " إنها لا تراني، ولا تدري بي، فلماذا أزورها؟"، مأساة أن نكون مجرد رد فعل، وأن يكون العطاء مرهونًا بما نأخذه مقدمًا، وحاولت جيهان الإفلات من سؤالٍ جارحٍ وهو:

"ألست أنا أيضًا خائنة لأنني طاوعته في إهمال أمه المريضة؟ فضلًا عن غيبوبة عشقي لسعيد؟"

تُرىٰ لو أنها هاتفت حامدًا الآن، هل ينصت إليها؟ وهل تظفر منه بفرصةٍ جديدة؟ فتعرض وجهة نظرها، وتعتذر له، وربما تبكي اعترافًا بخطئها؟ وتعود إلىٰ عشهما الجميل حتىٰ

إذا اضطرت للكذب تبريرًا للخيانة؟ نحن بشر، وتنطوي نفوسنا علىٰ تناقضات لا تنتهي.

سحبت هاتفها، لمست الرقم الأول لهاتف حامد، فالثاني فالثالث وهي تبتلع ريقها الجاف، فالرابع فالخامس فالسادس، تتأهب للقفز إلىٰ المجهول، فالسابع فالثامن -وقد نضحت جبهتها عرقًا طيبًا- فالتاسع فالعاشر....، بقي رقم واحد، ويؤنسها صوته من جديد، آه... ما هي أول كلمة أقولها حتىٰ تنجح خطة العودة؟ وماذا لو أغلق الهاتف قبل أن يرد؟ منتهىٰ القسوة أن يحدث ذلك، لن أغفرها له ولن أسامح نفسي، لابد أن يرد، سيرد، لا لن يرد، سيرد، لن يرد؛ أغلقت الهاتف، وتنفست بعمق.

٢٧

أطباء أم دجالون؟!

كل يومٍ يضيفون دواءً ويحذفون آخر، وكلاهما لا يفيد، بل مزيدٌ من الألم، مزيدٌ من الخطىٰ نحو الموت، مزيد من الحسرة يتقاسمها سمير ونهلة، وعين الحاجة صباح الخابية تسألهما في ضراعة الوجع " لماذا أو إلىٰ متىٰ؟ ألا تشعران بي؟ أنا لا أتألم فقط، وإنما أُذبح كل صباحٍ ومساء، وبجسدي قوافل من الفيروسات يقيمون الولائم الوحشية الصامتة، فينهشون في دمي ولحمي ويتكاثرون، وأين حبيبي حامد؟! طالت الشهور، فإن عجزت الحياة أن تؤازرني، فليقف الموت معي ويمد يده الرحيمة إلىٰ هلاكي، فينقذني منه، ويطفئ بالتراب نار العذاب الذي يكويني وحدي، حتىٰ اهتمامكم النبيل مع الأطباء، وملائكة الرحمة لم يعد نبيلًا لأنه يغرسني في ظلامٍ لزجٍ شوكي، يستولىٰ علىٰ جسدي فريسةً للفيروسات والبكتريا وتجار الدواء، عجبًا يا أحبابي!! العادة تقتلنا ولا نتعلم، ليس كل شيء علىٰ وتيرةٍ واحدة، أو يصب في إناءٍ متشابه، أو ينبع من معينٍ نمطي، وإلا انتفت ضرورة وجود أكثر من آدم وحواء في هذا الكون، واقتسم الدنيا رجلٌ وامرأة،

فلماذا تضحكون علىٰ أنفسكم وعلىٰ أمكم التي أحبتكم، وتصرون علىٰ علاجٍ وظيفته وهدفه المزيد من الألم، ليتني أنطق فأكتب تعهدًا بأن تمنعوا عني كل الدواء عدا ما يمنع الألم حتىٰ أمضي إلىٰ حفرتي التي تنتظرني وبتُّ أشتاق إليها، التراب أرحم من تلك العقاقير، ومن أمانيكم الخائفة".

سأل سمير الطبيب ولم ينتظر إجابته

- وماذا بعد؟ نحن الآن في الشهر العاشر!

- لا أحد يدري، وهناك حالات تمكث عامين، وأحيانًا ثلاثة أعوام.

هزت الكلمات سكون نهلة، فبكت وهي تشير إلىٰ الطبيب أن يخفض صوته، رحمةً بالحاجة صباح التي فقدت الإحساس بالوقت وبأشياء كثيرة تربطها بالحياة. وكلٌّ يتألم كما قُسم له، لكن سميرًا أبدىٰ تماسكًا لا يدل عليه نومه الخاطف، وتدليكه ليد أمه وساقيها وجسمها، عسىٰ أن يقيها من المزيد من قرح الفراش، وهو لونٌ مخيفٌ من الألم فوق طاقة الوحوش.

شعورٌ مزلزلٌ يمتصنا ويرمي بنا إلىٰ جحيمٍ عنوانه هنا،

ونحن جميعًا في انتظار هذا الزائر الذي لابد أن يأتي ليقبض هذه الروح الشفيفة، ويعتقها من هذا الجسد العبء، ونحن الذين بجَّلناه طويلًا لأنه أعطانا الحنان والطيبة والتسامح، فكيف يزوي ويذبل أمام عجزنا، ويصير جسرًا ونبعًا ومنصةً لآلامٍ لا تهدأ، وكان منذ عامٍ فقط جسر ابتسامةٍ وأملٍ وإرادة!!

قبَّلها سمير وجمرات الدموع في عينيه "أمي، كم تغنينا بك في حضورك وغيابك، والآن يعضنا ألمان، ألمُ تمددك بلا أمل، وألم فراقك الذي يلطم كل أيامنا".

طالت لحية سمير، وخلا وجه نهلة من المساحيق، وغطَّت صفرة الإجهاد بشرتها، كأنها في حصار حربٍ فاشلة، ولم تعد نهلة تكترث بتوجيهات الأطباء لها حمايةً لقلبها المتعب " لن أغادر أمِّي، أشعر بغصة غيابها الوشيك من الآن، يااااه، من يملك إمكانية الاعتراض علىٰ نقلها الذي قرره الأطباء إلىٰ غرفة العناية المركزة؟! لماذا لا نرأفُ بها ونكف عن هذا الافتعال الطبي!!"

بدأ العد التنازلي يا نوَّارة الوجود، وجهك الشاحب يشي بما سيكون، ونبضك الذي يفتر رويدًا رويدًا، وأعضاؤك التي

توشك أن تتوقف عن عملها، كأننا داخل أسطورة الأهوال، فوق احتمالك ما يدور، وفوق احتمالنا أن نرىٰ، ولو كانت قلوبنا من حجارة.

ما بين يومٍ وليلة تبدلت وتصادمت كل ثوابت الجسد "ليست هذه هيَ أمي، هي لا تملك سلاحًا واحدًا ضد هذه الجيوش التي تخرب جسدها الصريع منذ نحو عام، التنفس الصناعي عملية تعذيب لا هدف من ورائه، اللهم إلا الاستمرار الوهمي لحياة أمي كسببًا لعدة آلاف من الجنيهات تضاف إلىٰ أرباح المستشفىٰ، إن أجهل الجهلاء سيدرك أن هذه العناية المركزة -في حالتنا- عبثٌ بالجسد، وجريمةٌ كاملة."

"أيها المسئول، أوقف تلك الأجهزة الهزلية، لقد ماتت أمي، وما يجري الآن تمثيلٌ مشروعٌ بجثتها، ونفخٌ وحشيٌّ في جسدٍ تحول إلىٰ بالُّون، لو نطق هذا الجسد المعذب للعنكم جميعًا، ونحن معكم".

هرعوا، تهامسوا، توتروا، نزعوا الوصلات والأنابيب من الجسد المنهك المنتهك، وأُغلقت مصبات الألم، ولأول مرة

منذ شهورٍ طويلة مريرة يهدأ هذا الجسد ساكنًا، وعلىٰ كل خليةٍ بصمة ألمٍ مفترس، وعذابٌ لم تطله محاكمة، والوجه الساكن يصرخ:

بأي ذنبٍ عذبتموني!!

إنها قسوة مجنونة لبست بالطو أبيض.

توالت ساعات من دموع، بعضها كان مختزنًا كدموع حامد الذي أعجزه الكرسيُّ المتحركُ عن متابعة الجنازة.

عاد حامد إلىٰ منزله، يحسُّ بأنه يرسبُ في القاع، وكل يومٍ تنطفئ شمعة، بعد أن اختفت من حياته ابنته وزوجته وأمه، وأيضًا أخوه وأخته، أعمدة حياته العاطفية، وكذلك الأصدقاء، تباعدوا أو نقموا أو خانوا أو خدعوا ثم تبخروا.

تبقىٰ له الخادمة هند وسائق العربة، وبعض الشقق الفارغة التي لم يتم بيعها، ومنها شقة مريم التي لم ولن تستخدمها أبدًا.

قرص ذقنه عدة مرات، وأمام المرآة تسمرت عيناه، إنه يستمرئ النظر إليها، تمنحه المرآة شعورًا بالراحة، ويكاد يرىٰ من خلالها كل ما بناه في طريق المجد، وينتشي بأنه أكثر أفراد

أسرته طولًا، ويكاد يجزم بأن طول قامته يزداد بمرور الأيام، وهذا ما أثبته شكله في المرآة -قبل الحادث بالطبع- وهو الآن يرىٰ شاربه أكثر ازدهارًا ولمعانًا، ويكاد يرىٰ من خلفه في المرآة عمارته الخالية، وحوله أشباح أناسٍ بددتهم من حياته رياح العزلة التي زينت حياته، يكاد يسمع الموسيقىٰ الباردة التي يطرب لها.

***

بعد غيبة طويلة احتضنته بلهفةٍ شقته، أخيرًا سمير بين أشيائه الصغيرة بشكلٍ منتظم، سيمارس الملل من جديد مع زوجته النمطية جدًا، المحاسبة النجيبة عايدة هانم، ما كاد يلقي رأسه علىٰ الوسادة بعد رحلة المرض التي فاقت كل الكوابيس، قالت معاتبةً بادئةً بجملتها الشهيرة:

- أنت مخطئ يا سمير، رأيتك طول الوقت تتجنب أخاك!

- هو الذي اختار العزلة طول حياته، يعلم الله كم كنت أحبه.

- أتصور أن لزَوجَتِه دورًا.

- حياته كلها علامة استفهام كبيرة، حتىٰ طلاقه لا ندري له سببًا.

- مسكين.

كل الناس عند زوجتي علىٰ خطأ، ابننا ياسر وزوجته هما علىٰ خطأٍ أيضًا، لقد اختفيا بعد الدفن، هكذا قالت عايدة.

رد سمير وقد انكمش كرشه قليلًا:

- لا أحد مخطئٌ هذه المرة، أنا الذي أمرتهما بالانصراف مبكرًا لأنها حامل كما تعرفين.

- إننا لم نعد نراه إلا قليلًا، هو يختفي كأنه يسكن النجوم.

وأوضح سمير بكلمات حبيسة صدره وعقله لا تسمعها عايدة:

"لقد نجا ياسر من مشاجراتك العقيمة معي ومعه، وأنت تعرفين أنه جامد المشاعر، قليل المجاملات مثلك، رباه تمزقنا!!"

قالت عايدة متربصة:

- فيم صمتك؟

قال وهو يترنح علىٰ فراشه:

- الصمت كالكلام، كنت في المنفىٰ الأبيض، فلا تجعلي بيتنا منفًىٰ آخر.

- لست كريهةً إلىٰ هذا الحد.

قال وهو يتثاءب في شيءٍ من ضراعة:

- لا وقت للجدل، اعلمي يا عايدة أنه احيانًا لا وقت للحياة، سلام نيام.

٢٨

دموع نهلة نهر، تهاجمها صور من شهور الفزع الماضية، لا تجد جوابًا لسؤالٍ ينجب سؤالًا:

- كيف تحملت أمي هذه الجبال من الأهوال؟ ولماذا؟! وهل شاركناها الألم؟ أم تآمرنا ضدها دون أن نقصد؟ ألهذا الحد يتوه منا الطريق؟

يمسح أبناؤها دموعها، ويضمها زوجها إلىٰ صدره، يبرد جمرها، فلا أحد يتكهن بمن يحتل موقع الحاجة صباح غدًا! سألها عن حال سمير وحامد، قالت:

- كلٌّ منهما يحزن وحده بطريقته.

- حتىٰ الحزن لا يجمعكم!!

غاصت بنظراتها فيه، كأنها تتعرف عليه الآن فقط. ودت لو سألته:

- وماذا عنك؟ ألا تريد ذلك؟

٢٩

وللنوافذ لغات

نافذة حامد تطل علىٰ نافذة سمير، يفصلهما شارع متوسط، وفي أيام الود أو المهادنات تشهد النوافذ تحيات بالأيدي من بعيد، خاصة بين جيهان وعايدة، ومنذ انفصال جيهان لم تنفتح هذه النافذة، وكان محيِّرًا أن تُفتح صباح اليوم التالي للوفاة، وتكرر فتحها بعد ذلك، وظهر فيها حامد -جالسًا علىٰ كرسيِّه- في أوقاتٍ متفرقة، وأحيانًا هند تُطل بلا غاية.

لم يتدبر سمير المعنىٰ، وهو لا يميل إلىٰ التفكير كثيرًا في عجائب حامد، لأنه يشعر بغصةٍ تتورم، قال سمير وهو يَكِزُّ علىٰ شفته:

هو الإمعان في التحدي، وليس الاقتراب أو إحياء الود المهدد، فالمحبة شعور وليست تجربة.

انبعثت موسيقىٰ رمادية من حجرة سمير، اعترضت عليها عايدة، أي موسيقىٰ عندها ضجيج لا يُطاق، أو هي من صناعة الشياطين، أغلق الباب ليحبس عذ أذنيها الأنغام الحشرية.

قالت تناوشه، وتحتج علىٰ عادته السخيفة في عشق الموسيقىٰ:

- جحود! كيف تطيق الموسيقىٰ ولم يمض غير أسبوعين علىٰ الوفاة؟

- إنها موسيقىٰ حزينة كالرثاء، كانت أمي تنصت لي وإن لم تفهمني، والآن معي من لا تنصت لي ولا تريد أن تفهمني.

- وهل أنت تفهم الآخرين، وتتخلىٰ عن يقينك الدائم بأنك علىٰ صواب؟ أم تقهر رأي غيرك حتىٰ وأنت تتكلم عن الحرية؟!

- الحرية لا تُروىٰ باختلاق الكلام، والنساء قادرات علىٰ نقل الشمس من مكانها ثم البكاء علىٰ الفرص الضائعة.

- لن تتغير يا عزيزي، وإن تزوجت كل نساء العالم.

- أنت القاطرة الوحيدة في العالم التي لا تتراجع، لا بد أن يقوم كلٌّ منا بدور المتفرج، ونترك البناء لمن يحترم البناء.

- لا أحد يقدِّر البناء مثل أخيك مهندس العمارات الشهير، هل يعجبك تفكيره؟

- لقد حيَّرني كثيرًا، ولا أعرف كيف يفكر حتىٰ أتناغم معه، هاهاها، لو أنني أحسنت الظن به، لطلب مني تكلفة تشييد طابقٍ جديد يبيعه لحسابه هو، هو تاجرٌ خطير يثير اشمئزازي.

- التاجر الخطير لا يغلق نافذته أبدًا.

لأول مرة تدقق عايدة هكذا في الأسئلة، كأنها محقق خبير. قال:

- هو تاجرٌ حين يكسب، وليس كذلك حين ينفق، يصير بخيلًا جدًا كما تعرفين مع الغير، وسخيًّا جدًا إلىٰ حد السفاهة مع نفسه.

- هذه أمورٌ تخصه يا سمير.

- إذن ليبتعد عنَّا، ويكف عن اتهامي بالتقصير، وكأنه لا يزال طفلًا.

- أنت أيضًا تتهمه بالتقصير.

- هكذا شأن البشر، كل واحد يتصور أنه علىٰ صواب.

- هو لا يتكلم كثيرًا مثلك.

- لكنه يجيد التمثيل أمام الناس بأننا مثاليون، ترهقني سيرته، فلا تعكري مزاجي.

***

حامد نادىٰ هندًا سألها بفيضٍ من الفضول عن آخر مرة التقت جيهان، وماذا دار بينهما بالتفصيل؟ قَلَبت إجابات هند كل حساباته، فلماذا تحرص علىٰ معرفة أكله، وشرابه، وزائريه، وصحته، وأوقات نومه ويقظته، وهل اشترىٰ ثيابًا جميلة، ومن الذي أو التي تتبادل معه المكالمات، وعلاقته بأخيه، كأنها تعيش معه تحت سقفٍ واحد.

هو أيضًا سأل هندًا عن أحوال جيهان، ماذا تلبس؟ وهل خطواتها سريعة أم بطيئة؟ متىٰ ابتسمت لها ومتىٰ غضبت منها؟ قالت هند فيما قالت: "حين أخبرتها أنك تناديني بجيهان أحيانًا ضحكت وكادت ترقص، وحين اعترفت لها أنك كدت تسقط من علىٰ الكرسي بعد استيقاظك من النوم، شهقت وغضبت مني ولامتني وكأنها لا تزال معنا، ومضت تكيل لي النصائح حتىٰ تضمن الأمان الكامل لك يا سيدي، وقد وعدتها أن أفعل، وأعطتني رقم هاتفها، وبعض النقود

لأتصل بها من وقتٍ لآخر، وختمت: إذا استعصىٰ عليك نوعٌ من الطعام اتصلي بي دون أن يدري سيدك، وسأشير عليك بما يلزم، وأوصتني بك".

سألها السؤال الأهم:

- هل رأيت في يدها دبلة ذهبية؟

- كل مرة أتابع لكي أبارك لها وأهنئها، لكن لاشيء.

أغاظته الكلمات الأخيرة، وقرص ذقنه ثلاث مرات، وتجهز لينام بعض الوقت، وما لبث أن نام، وزحفت هند إلىٰ المطبخ، وقد أرهقها الحوار، وتاهت في دهاليزه، وتابعت طبخ وجبة من البازلاء واللحم التي تستهوي المهندس حامد.

تسلل خدر النوم إلىٰ عيني هند، وهي علىٰ بعد خطوات من موقد الغاز، اشتعلت بعض أواني الزيت، وتصاعد دخانٌ أيقظ هندًا، مدت يدها المرتعشة فزعًا لتبعد أواني الزيت، فانسكبت علىٰ الأرض، واتسعت رقع النار، فأمسكت بطرف ثوبها، هلعت، أطفأت ثوبها، يا للخيبة! إن المهندس حامد نائم، وإذا استيقظ فلن يمكنه فعل شيء، اندفعت إلىٰ الجيران، طرقت أبوابهم بجنون، هل هم علىٰ سفر أم في أعمالهم؟

طارت إلىٰ الشارع تصرخ، والدخان تصاعد من النوافذ مع ألسنة النيران.

سمع سمير الصراخ ورأت عايدة الدخان، هرول سمير حافيًا إلىٰ الشقة، وعدد من الناس واقفون يخافون من اقتحام اللهب والدخان الأسود الكثيف، " هند...هند... أين حامد؟" سألها وهو ممسك بيدها ويدخل في حيَّات النار، أشارت إلىٰ الغرفة، لم ينصت حامد لتحذيرات الناس له وأن ينتظر إلىٰ أن تأتي المطافي التي تم إخطارُها.

في لمح البصر التقط مفرشًا، وضرب الغرفة بقدمه ليجد حامدًا علىٰ فراشه مختنقًا فيما يشبه الغيبوبة، والنار توشك أن تفترسه من أكثر من جانب، أمر هندًا بالخروج، وبصعوبة سيطر علىٰ ألسنة النار القافزة علىٰ حامد، وكذلك الشعل التي أحالت الكرسي المتحرك جمرًا، تجرأ بعض الجيران ودلق عليه ما تيسر من الماء لفتح ممرٍ آمنٍ في طريق النار، يسمح بإفلات حامدٍ وأخيه من النار المسعورة، وبمخاطر قاتلة استقر حامد علىٰ كرسيه الساخن، فصرخ من كواء الأعمدة المعدنية لأجزاء من قدميه وذراعيه، وعيناه طاقتان من الرعب.

تم إبعاد حامد عن العمارة أولًا ترافقه هند، بينما تمددت النار واستشرت حتىٰ دمرت نصف الشقة بالكامل، ورفعت عربة الإطفاء خراطيم المياه، وبدأ الضخ فارتفع منسوب ذعر السكان أضعاف ما كان، فالخراطيم متهالكة كثيرة الثقوب ولا جدوىٰ منها، فتم استدعاء عربة أخرىٰ منعت تدمير العمارة بالكامل، أما شقة حامد فباتت أنقاضًا متفحمة.

٣٠

لـم يسـأله أحـد، ولـم يسـأل أحـدًا، تـدافعت الأحـداث بلا ترتيب، اختارت الضرورات مواقعها، وجد حامـد نفسـه في شقة شقيقه، محاطًا بوشـائجٍ مـن اللهفـة والإشـفاق والاهتمـام دون تقصيرٍ هو من روَّاده، وهند تملكتها هيسـتريا البكـاء حتىٰ نهرها سمير الذي بات الموقف كله بيده.

لم يستطع سمير أن يمنع بكاء حامد أو يسأله لماذا؟

أهي الحسرة علىٰ ما احترق؟

أم يبكي من آلام الحروق في ساقيه؟

أم تأثرًا بموقف أخيه الذي كاد أن يموت حرقًا من أجله؟

أم الندم لمشهد جارته القديم وهي تحترق أمامه ولم يهم بإنقاذهـا، وكـان جـاره الـذي نسـي اسـمَه الآن أكثـر رجولـةً وشهامةً منه؟

تمسكت عايدة بأن يبيت حامد مع أخيه عـدة ليـالٍ حتىٰ يشـفىٰ مـن الحـروق، أصـر حامـد علىٰ أن ينتقـل إلىٰ شـقته في العمـارة الجديـدة والخجـل يسـحقه، ويعصـف بكـل ثوابتـه،

وكأنه يصحو من نومٍ عميقٍ طويل، ومع تصاعد الدم إلىٰ وجهه، مد يده المرتجفة، وقبض علىٰ يد أخيه يلوذ بها، ويشكرها وهو يضغط عليها يعتذر لها ويسألها:

"ماذا يفعل الغريق حين تنتشله يدٌ ملائكية؟!"

رد سمير:

- عافاك الله.

متشبسًا بيد سمير، وضارعًا بعينيه لعايدة، قال:

- أرجوك؛ خذني إلىٰ شقتي الأخرىٰ، أكاد أموت من نفسي، إنني أبلهٌ عظيم.

وسالت من عينيه دموع، تلفت... نادىٰ بصوتٍ خفيض:

- هند... هند.

عادت بعد دقائق، وجاء الطبيب، ودار بعينيه يبحث عمن يبلغه التعليمات، دق جرس الباب، دخلت جيهان لا تأبه بثرثرة العيون، وربما سياطها، تلقت تعليمات الطبيب، غاصت في عيني حامد وعقله وقلبه، قالت بصوتٍ عالٍ باغت الجميع:

- معك حتىٰ تُشفىٰ.

رد حامد وقد دارت رأسه، واهتز كل شيءٍ في عينيه:

- بل للأبد

أمسك بهاتف جيهان وقال:

- اختاري لنا أغنيةً جميلة.

السيرة الذاتية

- نشأت شوقي محمد المصري.. منية النصر.
- بكالريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية عام ١٩٦٧م.
- عضو اتحاد الكتاب، ونقابة الصحفيين، و.... إلخ.
- نشر أكثر من مائة كتاب في الرواية، والشعر، والمسرح، والتراجم، وأدب الطفل.
- كتب أكثر من (٦٠٠٠) حلقة في الإذاعة والتلفاز في الأدب والدراما.
- حاز جائزتي الدولة في الشعر عام ١٩٩٨م، واتحاد الكتاب في القصة ٢٠٠٧م.
- أشرف علىٰ تحرير مجلات للأطفال في مصر والسعودية وأمريكا.
- نوقشت أعمال له في رسائل جامعية.
- ت/ ٠١٢٢٤٦٢٤٤٣٤